بنور القرآن اهتديت

تأليف: يحيى طالب مشاري الشريف

الإهداء

إلى آدم صفوة الله، وإلى نوح نبي الله، وإلى إبراهيم خليل الله، وإلى موسى كليم الله، وإلى عيسى روح الله، وإلى محمد حبيب الله، إلى الذرية الطاهرة التي بعضها من بعض، إلى المختارين من قبل الله عزّ وجلّ في كل مكان وزمان، إلى البقية الباقية من الذرية الطاهرة، وأتباعهم المخلصين لهم المُسلّمين لهم تسليماً، أهدي هذا الجهد المتواضع؛ ليكون ذلك لي شهادة عندهم يوم القيامة، بأني بهم مؤمن، ولهم مسلّم ولأمرهم متّبع، وأني حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم، أسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبل ذلك مني بأحسن القبول، إنه على كل شيء قدير.

يحيى

الصفحة ٨

الصفحة ٩

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

أمّا بعد.

إنّ كل ظاهرة ظهرت في هذا الكون سلبية كانت، أم إيجابية لابدّ أن يكون لها علّة أو سبب أوجدها في الخارج.

وكلّ من أراد أن يقدّم علاجاً لظاهرة سلبية، لا بدَّ له من معرفة أسبابها، وجذورها وعلَلِها الأساسية التي أوجدتها، كي يتسنّى له معالجة تلك الظاهرة السلبية معالجةً صحيحة وكاملةً.

ويتّضح ذلك عندما نشاهد الطبيب الماهر، وهو يعالج مريضه، فهو لا يبادر إلى معالجة العوارض الخارجية للمرض من قبيل اصفرار الوجه، أو ارتفاع درجة الحرارة، بل يتخذ تلك العوارض الظاهرية وسيلة لاكتشاف المرض المصاب به ذلك المريض، وعند اكتشاف ذلك الطبيب لذلك المرض بصورة صحيحة وكاملة، عندها

الصفحة ١٠

يستطيع تقديم العلاج الكامل، والشافي للمريض، ويستطيع أن يزيل المرض، وكل عوارضه عن المريض.

وهذه المسألة متسالمٌ عليها بين العقلاء؛ إذ لا يمكن معالجة أيّ ظاهرة سلبية قبل تحديد هويتها، و معرفة جذورها، وعللها وأسبابها، ومصدر نشوئها.

كذلك القاضي الحاذق حينما تقدم له قضية معيّنة، فهو يحاول أن يكتشف من خلال ما يسمعه من الدعاوى، السرّ الكامن وراء ذلك الاختلاف، وما هو المحور الحقيقي الذي يدور حوله النزاع، وتقوم عليه رحى الاختلاف، حتى يتسنّى له معرفة الحق وإنصاف المظلوم.

وهذا الكتاب يكشف للقارئ السرّ الكامن وراء الاختلاف بين الفرق، وباكتشاف السرّ الكامن وراء الاختلاف، والتفرق يمكن للباحث معرفة الحقيقة بسرعة، ويمكن أيضاً للامة معالجة هذه المشكلة الخطيرة، وهي ظاهرة الاختلاف، والتفرّق والتمزّق، التي أنهكت المسلمين وطعنتهم من الداخل، وجعلتهم من أضعف الأمم في مواجهة أعدائهم، وأدّت إلى انحراف الملايين من شباب الإسلام، وعدم إقبال الملايين على الإسلام، هذه الظاهرة الخطيرة، التي لو كُتب عن سلبياتها وأضرارها المجلدات، لَمَا تيسّر حصرها، وقد حذّر القرآن الكريم منها، ونهى عنها، فقال تعالى{ :وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا

وَلاَ تَفَرَّقُواْ (١)}الآية، والقرآن الكريم لم ينه عنها فحسب، بل بيَّن سلبياتها وأضرارها كقوله تعالى } :وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ(٢)}، وأشار إلى خطورتها، فقال ...} :أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ (٣)}...الآية، وهذه الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله عزّ وجلّ جعل التفرّق، والاختلاف نوعاً من أنواع عذابه، وكذلك كشف القرآن الكريم سرّ الاختلاف، والتفرق ولم يتوقف عند العوارض الظاهرية لذلك المرض؛ حيث يقول{ :فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً(٤)}، وهناك آيات كثيرة تكشف لنا سرّ هذا المرض، وتبيّنه بصورة واضحة، وتعرض لنا العلاج؛ إما من خلال سرد القصص، أو غير ذلك.

يحيى طالب الشريف

ربيع الثاني /١٤٢٥هـ

---

(١)آل عمران: ١٠٣.

(٢)الأنفال: ٤٦.

(٣)الأنعام: ٦٥.

(٤)المدّثر: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢.

الصفحة ١٢

الصفحة ١٣

جذور الاختلاف

إنّ كثرة الاختلافات العقائدية، وكثرة المسائل المختلف عليها بين الطوائف والمذاهب الإسلامية ؛ أصبحت اليوم من أكبر العقبات، التي تواجه الشاب المتديّن الذي يريد أن يكون خادماً لدينه وعقيدته.

فهو يرى أنّ المسائل المختلف عليها قد كثرت بشكل غريب! بحيث يصعب عليه في بعض الأوقات ذكر وحصر عناوينها، فضلاً عن مناقشتها وبحثها، وحلّ الشبه التي طرحت حولها قديماً وحديثاً ؛ خاصة، ونحن نعيش في عصر تكاثرت فيه الأعمال والأشغال، وكما يسمّونه عصر السرعة.

لذا لابدّ من كشف السرّ الكامن وراء هذا الضباب الذي يحول بين الحق وطالبيه، ومن أجل ذلك نريد أن نبحث في هذه الأسطر حول هذا السؤال:

هل تفرّق المسلمون من أجل الاختلافات العقائدية، أم اختلفوا عقائدياً من أجل شيءٍ آخر، وجدت الاختلافات العقائدية على إثره؟

الصفحة ١٤

من يتأمّل قليلاً، وينظر إلى التاريخ بدقّة، سيجد الأمر واضحاً جداً، فالرسول (صلّى الله عليه وآله) ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، والصحابة لم يكن بينهم أي اختلاف عقائدي، إذن فما هو السبب الذي أدّى إلى الاختلاف فيما بينهم؟!!

ومن يقول إنّهم ـ أي الصحابة ـ لم يختلفوا، فهو إمّا جاهل، لم يطّلع على تاريخ الإسلام، أو معاند لا يزيده العلم إلاّ جهلاً.

فمن الواضح أنّ الاختلاف وقع بين الصحابة بعد وفاة النبي (صلّى الله عليه وآله) مباشرة، ثم تطوّر إلى حدّ كبير؛ حتى نفي وطرد بعض الصحابة، كما حصل لأبي ذر، وقتل الخليفة الثالث، وقامت حرب الجمل، وصفين والنهروان، وغير ذلك.

فالاختلاف كان موجوداً بينهم، وثبوته واضح، وهو من بديهيات التاريخ.

وكما قلنا إنّ تفرّق الصحابة لم يكن من أجل الاختلافات العقائدية المطروحة، كما نراها اليوم، بل هناك أمر خفيٌّ وخطير، لم يلتفت له إلاّ القليل.

وهذا ما سنوضّحه في الأبحاث القادمة من هذا الكتاب بإذن الله عزّ وجلّ.

سر الاختلاف والافتراق

وقبل أن أذكر ذلك السرّ الخطير، أضيف أيضاً، أنّ هذا السرّ لم يكن هو السبب في اختلاف، وتفرّق المسلمين فحسب، بل كان هو السبب في اختلاف، وتفرّق الأمم السابقة أيضاً، وهو السبب الذي جعل قريشاً تحارب الرسول (صلّى الله عليه وآله) بكلّ ما أُوتيت من قوة، وكذلك كان هو السبب الذي جعل اليهود يحاربون الإسلام، ويواجهونه ويلجأون إلى تحريف كتبهم، ونبذها وراء ظهورهم.

وأمّا ذلك السرّ الخطير فهو: (تكبر إبليس ومن سار على نهجه من الكفار واليهود وأكابر المجرمين، وعدم خضوعهم، وتسليمهم للمختارين للاستخلاف في هذه الأرض من قبل الله عزّ وجلّ، فإن أولئك الأبالسة يرون أن الخضوع لأصفياء الله عزّ وجلّ سيسحب من تحتهم البساط، ولن يبقى لهم جاه ولا مقام؛ ولذا حاربوا الصفوة من الخلق تحت كلّ عنوان يقبله الناس.)

ومن أجل هذا الأمر قامت الدنيا ولم تقعد، وتفرّقت الأمم وتشتت، وتشكّلت المذاهب وتشعّبت.

وقد يزعم البعض أن هذا الأمر ليس هو السبب فيما جرى بين

الأمم، من تفرّق واختلاف؛ لذلك كان لابدّ لنا أن نسرد بعض القصص القرآنية التي وردت فيها آيات تثبت ما نقوله، وتؤكّده وتجعله السبب الرئيس لكلّ نزاع دار بين العباد على وجه الأرض.

وهذا السبب إمّا أن يكون مباشراً، كما جرى بين آدم (عليه السلام) وإبليس ـ لعنه اللهـ أو غير مباشر، كما هو النزاع الموجود بين طوائف المسلمين في هذا العصر، فالنزاع الموجود اليوم ناشئ عن الاختلافات العقائدية، والاختلافات العقائدية ناشئة على إثر الاختلافات التي جرت بين الصحابة، الذين تركهم الرسول (صلّى الله عليه وآله) على المحجة البيضاء، التي ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

آدم (عليه السلام) وإبليس في القرآن

لقد ذكر القرآن الكريم قصة آدم (عليه السلام) وإبليس في مواضع عديدة؛ لتكون تلك القصة عبرة للعالمين، وبالأخص للمسلمين، فِذكْر القرآن الكريم لتلك القصة، كان من أجل أن نعرف كيف نشأ النزاع والاختلاف، ومن أجل أن نعرف أيضاً أسباب التفرّق وجذوره.

إنَّ في تلك القصة دروساً عظيمة جداً، منها على سبيل المثال مسألة الاصطفاء والاختيار، ومنها أيضاً مسألة الخضوع والتسليم للحكم الإلهي ـ وهذا التسليم الذي تمثّل في دور الملائكة ـ ومنها أيضاً مسألة العناد للاختيار، والاصطفاء الإلهي ـ وكان هذا العناد متمثّلاً في دور إبليس لعنه الله ـ ومنها مسألة مظلومية المنتخب والمصطفى وهو آدم (عليه السلام).

ثم إنّ الآيات القرآنية بيّنت لنا سرّ العناد الشيطاني، وقبل أن نشرع في ذكر القصة نريد أن نتعرّف قليلاً على شخصية إبليس قبل الضلال، وما هو دوره قبل خلق آدم (عليه السلام).

إبليس قبل الضلال

لقد ذكر القرآن الكريم إبليس مع الملائكة مراراً كثيرة، وذِكْره له

مع الملائكة يدلّ على أنّه كان صاحب مقام كبير عند الله، ومن أجل ذلك المقام رفعه الله سبحانه، وجعله في درجة الملائكة، وكانت تُعرض له مسائل من علم الغيب، وما هو مقدر في المستقبل، وبالتالي كان لإبليس مقام عالٍ جداً عند الله عزّ وجلّ.

وقد ذكرت النصوص أن إبليس كان له مقام عبادي كبير، فقد ورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وهو يصف إبليس ويأمرنا بالاعتبار، قوله (عليه السلام): " فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان عَبَدَ الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة، عن كبر ساعة واحدة. فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟. كلا، ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً. إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد. وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حِمًى حرّمه على العالمين.(١)"

وهناك نصوص كثيرة تبيّن مقام إبليس قبل الضلال، لسنا في صدد جمعها.

ومما تقدّم تتضح لنا مسألة مهمة جداً: وهي السبب في ضلال كثير من الناس، وذلك أننا حينما نرى عبداً من عباد الله قد قدم

(١)نهج البلاغة: ٣٨٦، بتعليق صبحي الصالح، دار الأسرة للطباعة والنشر.

أعمالاً صالحة كثيرة، نحاول أن نعطيه نوعاً من القداسة؛ بحيث نتصور أنه لا يمكن أن ينحرف عن الصراط المستقيم وهذا تصوّر خاطئ جداً، ولأجل إزالة هذا التصور، ذكرت لنا النصوص القرآنية والحديثية مقام إبليس قبل الانحراف، كي نعتبر ونعرف أنّ مجرد مدح الله سبحانه لبعض خلقه، أو تفضيله لهم لا يعني ذلك أنهم معصومون عن الانحراف، فقد ينحرفون فيما بعد، إلاّ من زكّاه الله ـ تعـالى ـ وعصمه، وذكر لنا ذلك في كتابه، أو بيّنه من خلال ما جاء على لسان رسوله (صلّى الله عليه وآله).

فها هو إبليس خير مثال، قد عبد الله ستة آلاف سنة ـ فإذا كانت من سنين الآخرة، فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون ـ لم تنفعه عبادته بعد أن خالف الله سبحانه وعصاه، وهؤلاء بنو إسرائيل قد فضّلهم الله على العالمين، ثمّ لمّا انحرفوا ضربت عليهم الذلّة والمسكنة، وباؤوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين.

فيجب أن لا نغترّ بأحد أبداً، ولا نتبع إلاّ من أمرنا الله عزّ وجلّ بالالتزام بأمره، وأوجب علينا اتباعه، وطمأننا من عدم انحرافه كقوله تعالى } :مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ الله الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ الله.(١){...

(١)آل عمران: ٧٩.

فإن اتّباع أولئك الصفوة الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ للقيام بأمره هو الذي سينجينا من الحالة الخطيرة التي ذكرها القرآن الكريم؛ حيث يقول} :اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله .(١){...ولكن بشرط أن لا نزكّي على الله أحداً.

أسباب انحراف إبليس:

إنّ سبب انحراف إبليس وافتراقه عن الملائكة، هو نفس السبب الذي تفرّقت من أجله الأُمم من بعد ما جاءتهم البينات، ونفسه الذي تفرّق من أجله المسلمون.

فإبليس لم يكن لديه مشاكل عقائدية، ولم ير آدم (عليه السلام) على عقيدة فاسدة!

إذن ما هو السبب الذي جعله يتوعّد آدم (عليه السلام) وذريته كل ذلك التوعّد؟ وما هو السبب الذي جعله يحمل كل ذلك الحقد والكراهية لآدم (عليه السلام) وذريته؟

لقد ذكر القرآن الكريم ذلك السرّ، وذلك السبب، لعلّنا نعتبر، ولا نكرر الخطأ الذي وقع فيه إبليس.

قال تعالى} :قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

(١)التوبة: ٣١.

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.(١)}

من خلال هذه الآيات الكريمات يتّضح لنا سرّ ذلك الشقاق، وأنّه لم تكن بين آدم (عليه السلام) وإبليس أي مشاكل عقائدية، بل إن مشكلة إبليس الوحيدة هي أنّه لم يستطع أن يتحمل الاختيار، والاصطفاء الإلهي لآدم (عليه السلام)، فكان يرى نفسه أولى من جميع المخلوقات بذلك المقام الذي خَصَّ الله سبحانه به آدم (عليه السلام).

وبدلاً من أن يسلّم للأمر الإلهي، استكبر وأبى وقال} :أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ{، وتوعد آدم (عليه السلام) وذريته بأن يغويهم أجمعين إلاّ المخلصين منهم، وبذل جهده الجهيد في تحقيق هدفه المشؤوم.

ومن هنا يتّضح أنّ أمراً خطيراً جداً ضحّى من أجله إبليس واستعدَّ أن يتحمل العذاب، ويصبح من الملعونين، مع علم إبليس باليوم الآخر؛ حيث طلب من الله عزّ وجلّ أن يمهله إلى يوم يبعثون، وذلك الأمر الخطير هو أنّه كبر على إبليس أن يسلّم لآدم ويسجد له.

وهذا الأمر الذي ضحّى من أجله إبليس مع ما عنده من العلم باليوم الآخر، وما يرى من ملك الله عزّ وجلّ؛ حيث كان بين الملائكة يرى

(١)ص: ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

عظمة الله، وقدرته، ويرى عذابه ونقمته، وكان إبليس ممن كلّمه الله وخاطبه؛ حيث أمره مع الملائكة بالسجود، هذا الأمر هو السبب الذي جعل أكابر المجرمين في كل زمان ومكان يُنازعون أنبياءهم، ويقاتلونهم، وهو نفسه الذي جعل اليهود يحاربون رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهو السبب الذي جعل قريشاً تحارب الرسول (صلّى الله عليه وآله)، وتبذل كل ما أوتيت من قوّة لقتله (صلّى الله عليه وآله) أو الإطاحة به (صلّى الله عليه وآله)، وهو السبب الذي جعلهم ـ أي قريشـــاً ـ يسمّون الرسول (صلّى الله عليه وآله) الكذاب والساحر بعدما كانوا يسمّونه الصادق الأمين، وهو السبب الذي جعل أصحاب الرسول يتنازعون ويتقاتلون بعدما تركهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

ولنا هنا وقفة تأمل، وهي أنّ إبليس قد وعد أن يغوينا، فهل يا ترى سيخبرنا بما جرى بينه وبين أبينا آدم (عليه السلام) ويذكر لنا علّة عدم تسليمه، وعلّة طرده من رحمة الله، ثم يدعونا لاتّباعه والوقوف معه، ويجعل هذه هي الطريق لإغواء ولد آدم؟! أم أنّه سيأتي من طرق أُخرى؟

ومن الواضح أنّه سيسلك طرقاً أُخرى ليغوي من اتبعه؛ لأنّه لو قال الحقيقة ما تبعه أحد، ولكنه يعدهم ويمنيهم، ويكذب عليهم

ويغريهم ويزيّن لهم سوء أعمالهم، بالطبع إن إبليس ومن اتبع خطاه لا يقولون نحن نحارب أولياء الله لأنّ الله فضّلهم علينا، بل إنهم ينسبون إلى أولياء الله ما لا يليق، فكم نسبت قريش إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله) من الأكاذيب، وحرّضت الناس عليه، وسنذكر ـ إن شاء الله ـ فيما يلي من الأبحاث نبذة مختصرة من النزاعات التي دارت بين أولياء الله وأعدائه حتّى ينتهي بنا المطاف إلى أمة الإسلام، وقبل ذلك يجب أن نعرف ما هو موقفنا من آدم (عليه السلام) وإبليس، فلابدّ لنا من موقف.

هل نقف موقفاً محايداً ونقول: ليس لنا دخل بين هذين الشخصين العظيمين، كلاهما مجتهد وكلاهما مصيب، ولكلّ منهما أجر؟ أو نقول: إنّ إبليس له المقام العالي فهو الأول والأكثر عبادة؟ أو نقول: آدم وإبليس تنازعا، ولو كانا صالحين ما تنازعا، إذن نتركهما ونتخلى عنهما كلياً؟ أو نقول إنّ آدم هو صفوة الله وخيرته؛ ولذا يجب أن ننصره ونكون من حزبه؟ فما هو الموقف الصحيح؟

أصحاب الموقف الأوّل يقولون: إنّ إبليس وآدم كان لهما المقام العالي والرفيع عندالله، فكيف يصحّ لأمثالنا التدخل، والتمييز بين أولئك الكبار، ونحن مقصّرون ومذنبون، ومهما فعلنا، فلن نصل إلى ما وصلا إليه!

والجواب: إنّ ارتفاع مقام أحد المخلوقات في فترة من الزمن لا

يعني أنّه معصوم مطلقاً من كل خطأ وانحراف؛ ولذلك ذكر الله عزّ وجلّ لنا هذه القصّة ـ قصة إبليس وآدم (عليه السلام) ـ لتكون لنا درساً، فلا يصحّ أن نعتمد على أحد أبداً إلاّ من أمرنا الله بالاعتماد عليه كالأنبياء، والمرسلين والأولياء المخلصين، المخصوصين من قبل الله عزّ وجلّ بالاتباع.

إذن لا يصحّ أن نكون حياديين، ونتّهم أنفسنا بالنقص؛ لأننا من العالم السفلي وإبليس وآدم (عليه السلام) من العالم العلوي وذلك لسببين أوّلها: أنّ افتراق المقام لا يمنعنا من أن نعرف الحق ونميّزه من الباطل.

ثانياً: أن إبليس بعد الانحراف سقط إلى أسفل سافلين، كذلك كلّ من سلك مسلكه ونازع أولياء الله حقّهم ومقامهم.

ولا يمنعنا أيضاً عن البحث والتحقيق مقولة بعض الهمج الرعاع الذين يقولون: دعنا نصل أوّلاً إلى مقام آدم (عليه السلام) وإبليس، ثم بعد ذلك يحق لنا أن نتكلّم وننتقد، وهذه المقولة باطلة؛ لأنّه سينتج منها الآتي:

١.أنّه لا يصح لمسلم نقد إبليس أو تبيين ضلاله.

٢.أنّه لا يصح لمسلم نقد علماء بني إسرائيل؛ حتى يصبح أعلم منهم.

٣.أنّ كل مفسد في الأرض إذا ارتقى مراتب العلم، أو وصل إلى

مقام عال يجب أن نسكت عنه، حتى نصبح أعلم منه، أو أعلى منه مقاماً، وبهذا ستمتلئ الأرض فساداً، والله لا يحب الفساد.

وأما القول الثاني فهو واضح البطلان؛ وذلك لأن إبليس سقط إلى أسفل سافلين بعد أن أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد بعناده وكبره.

ويجاب على أصحاب المقال الثالث: بأنّ هذا المقال سيؤدّي إلى مخالفة القرآن و العقل.

فأمّا مخالفة القرآن: فقد أمر ـ تعالى ـ أن نصلح بين المتنازعين، فإن بغى أحدهما على الآخر فلنقاتل الباغي، قال تعالى} :وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله.(١){...

وأمّا مخالفة العقل: فلو قلنا بهذه المقالة، لما حق لنا أن نقول: إنّ دين الإسلام هو الحق؛ لأنّه تنازع مع الأديان والفرق الأُخرى. فهل يعني تنازع شخصين أنّ كلاهما مبطل؟ وهذه مقالة واضحة البطلان.

ولم يتبقَّ إلاّ القول الرابع، والذي هو الحق، فيجب أن نسلّم لصفي الله ونتّبعه ونكون من حزبه، وبحثنا هذا لا يعني بالضرورة

(١)الحجرات: ٩.

أنّ المسلم متحيّر في قضية آدم (عليه السلام) وإبليس، لأنّ كلّ مسلم متيقّن بضلال إبليس، ولكن نريد من هذا البحث أن نعرف موقفنا من المتنازعين بشكل عام، فمثلاً نعرف موقفنا من النزاع الذي دار بين ابني آدم (عليه السلام)، وموقفنا من النزاع الذي دار بين بني إسرائيل (اليهود)، والحواريين (النصارى)، وكذلك نعرف موقفنا من النزاع الذي دار بين الرسول (صلّى الله عليه وآله)، واليهود والنصارى، ثم نعرف أيضاً موقفنا من النزاع الذي دار بين الصحابة، وهكذا نميّز الحق ونتبعه، ونعرف الباطل وننبذه.

أولاد يعقوب (عليه السلام)

قال تعالى} :لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ.(١){

إنّ في القصص القرآنية دروساً عظيمة، وعميقة لو تدبّرناها واستفدنا منها، لقضينا على كثير من مشاكلنا الدينية والدنيوية.

فالقرآن الكريم هنا ـ وبشكل قصة بسيطة يفهمها العامة والخاصة ـ يعالج أخطر مشكلة واجهتها الأمة الإسلامية، بل أخطر مشكلة واجهتها البشرية، وهي مشكلة النزاعات والصراعات التي تضرب الأمم من الداخل، فها هو يذكر لنا قصة يوسف (عليه السلام) وإخوته، ويشرح لنا أحداثها ونتائجها، ويذكر مشاكلها، ثم يكشف أسرار تلك المشاكل، ويبين عللها.

ومن المعلوم أن أولاد يعقوب (عليه السلام) لم يكن لديهم صراع ديني، أي لم تكن بينهم مشاكل عقائدية، ولا اختلافات مذهبية، ولا شيء من هذا القبيل.

فلماذا تنازعوا؟!

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نجده يجيب على سؤالنا، ويكشف

---

(١)يوسف: ٧.

لنا سرّ وسبب ذلك النزاع، قال تعالى} :قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.(١){

هاتان الآيتان الكريمتان تكشف لنا سرّ النزاع الذي دار بين أولاد يعقوب (عليه السلام)، فقد أرشد يعقوب (عليه السلام) ولده العزيز يوسف (عليه السلام) أن لا يقصص رؤياه على إخوته، لأنّهم سوف يكيدون له كيداً شديداً، كما كاد الشيطان لآدم (عليه السلام).

ولكن لماذا يكيدون له ذلك الكيد المذكور في الآية الأولى؟!

تجيب الآية التالية بعدها، وتذكر سبب ذلك الكيد، وهو المقام الإلهي الذي سوف يُعطى ليوسف من قبل الله عزّ وجلّ، فإنّ الله سبحانه سيجتبيه ويعلّمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه، كما أتمّها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، وهذا مقام عظيم يُظلم أولياء الله من أجله دائماً!

أتمنى لو يقرأ كلّ مسلم القرآن الكريم من جديد، ويدقّق ويبحث عن سرّ النزاعات التي دارت بين أولياء الله، وأعدائهم، سيجد أنها

---

(١)يوسف: ٥، ٦.

تبدأ أوّلاً من ذلك المبدأ الذي بدأت منه بين آدم (عليه السلام) وإبليس، وهو مبدأ **}أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ{**، ومبدأ **}نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ{** ومبدأ **}أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا{** ومبدأ **}لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله{** ومبدأ **}لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{** ومبدأ (إن النبوة والإمامة لا تجتمع في بيت واحد) وكلّها أقاويل اختلفت في اللفظ وتوحّدت في المعنى.

لذلك تجد القرآن الكريم ركّز على مسألة الاصطفاء والاختيار، فإنك تجد آيات كثيرة جداً كلّها تركّز على هذه المسألة، وتدعو الناس للتسليم والخضوع، ولو أردنا ذكر هذه الآيات، لطال بنا المقام، ولكن سنذكر آيات قليلة فيما يلي من البحوث ـ إن شاء الله تعالى ـ.

إنّ في قصة يوسف وإخوته لآيات للسائلين الذين يسألون عن الحق، ويطلبونه، فمن يقرأ قصة يوسف يندهش كثيراً حينما يرى أنّ أبناء نبي الله يعقوب (عليه السلام) وهم الذين تربوا في بيت الوحي، كيف يتصرفون ذلك التصرف الذي لا يليق لبشر يحمل روحاً إنسانية، فضلاً عن روح دينية وإيمانية؟. نعم، إنها مشكلة قد توجب الحيرة، ولكن لاغرو، فقد سبقهم إلى ذلك إبليس الذي كان في مقام عظيم، لأن الحسد والتكبر، وعدم الخضوع للمختار من قبل الله عزّ وجلّ يهوي بصاحبه إلى مكان سحيق، فإخوة يوسف هم أولاد يعقوب بن إسحاق

بن إبراهيم (عليهم السلام)، إبراهيم الذي قال له المولى عزّ وجلّ **}إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا{** فلم يتأنَّ (عليه السلام) حتى يشكر الله عزّ وجلّ على ذلك المقام الكبير الذي لم يصل إليه إلاّ بعد أن ابتلاه الله عزّ وجلّ بكلمات فأتمّهن، ولكنه (عليه السلام) بادر قبل شكر النعمة إلى طلب ذلك المقام لذريته؛ حيث حكى عنه المولى (عليه السلام) فقال سبحانه **}** : **قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.{**

نعم، إن أولاد يعقوب يعلمون جيداً أن ذلك المقام انتقل من أبيهم إبراهيم (عليه السلام) إلى إسماعيل، ثم إلى إسحاق ثم إلى يعقوب، وبقي الأمر في أولاد يعقوب فمن منهم سيكون هو المرشح لذلك المقام الإلهي العظيم، ولذا أشار يعقوب إلى ولده العزيز يوسف على أنه هو المرشّح لذلك المقام، كما حكى القرآن الكريم ذلك عنه، حيث قال:

}وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.(١){

ومن يراجع الروايات التاريخية، يرى كيف كانت القصة مؤلمة، وكيف كان يوسف (عليه السلام) يستغيث بهم واحداً واحداً، فلا يجيبه أحد،

(١)يوسف: ٦.

فما هو السر الذي جعلهم بهذه الحال من القسوة والغلظة؟

جواب هذا نَجده في قوله تعالى } :فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً.(١){

فهذه الآيات الكريمة شبهت المعاندين تشبيهاً فاضحاً، وذلك لأنّ الحمر المستنفرة تتحرك بدون شعور حركات عجيبة وغريبة، وأما إذا كانت نافرة من أسد، فإنك ترى منها العجب كلّ العجب؛ لأنها تهرب هروباً غير طبيعي، بحيث أنه لو كان أمامها جهنم لاقتحمتها، وهكذا الكثير من الناس! فبمجرد أن يختار الله عزّ وجلّ أحدهم، تقوم قيامتهم، ويتمنون لو وقعت السماء على الأرض، ولا يكون ذلك، ويضحّون بكل شيء، ويفترون على الله ورسوله الكذب، ويقتلون أولياء الله، ويكونون جنداً للشيطان.

كل ذلك احتجاجاً واعتراضاً على الله عزّ وجلّ، لأنّه اختص برحمته من يشاء، وهذا الاحتجاج والاعتراض ليس قولياً ولكنّه عملي، وإنّ هذا لهو الظلم العظيم؛ ذلك لأنّ كلّ إنسان لا يرضى أن يجبره أحد على ما لا يريد، ويعتبر ذلك الإجبار ظلماً عظيماً، فكيف يسعى البعض بعمله معارضاً ما يريده الله عزّ وجلّ، وهو العبد الحقير أليس ذلك هو الظلم العظيم؟

(١)المدّثر: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢.

بنو إسرائيل (اليهود)

لقد ذكر القرآن الكريم قصصاً كثيرة لبني إسرائيل، ومن الواضح أنّ مقصود القرآن الكريم هو دعوة المسلمين إلى الاعتبار بتلك الحوادث التاريخية المهمة.

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أنّ بني إسرائيل مرّوا بمراحل عديدة، وخطيرة جداً، يجب على كلّ مسلم أن يدرس تلك المراحل بدقّة، ويعرف السبب والسرّ الذي أوصلهم إلى تلك المراحل.

ونحن هنا نقسّم المراحل التي مرّوا بها، حسب ما نص عليه القرآن الكريم إلى أربع مراحل.

١.مرحلة الذلّ والهوان:

قال تعالى } :وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ.(١){

وهناك آيات أُخرى كثيرة بهذا المضمون، شرحت حال بني إسرائيل قبل إرسال موسى (عليه السلام) إليهم، وكيف كانوا في ذلّ وهوان،

---

(١)البقرة: ٤٩.

فقد استعبدهم فرعون، وحقّرهم وأذلّهم، وكل ذلك يشرحه القرآن الكريم، ويشرح كيف أذلهم وسحقهم فرعون وجنوده، فرعون الذي ادّعى أنّه ربّهم الأعلى، وفعل بهم ما فعل، ولم يستطع أحد مقاومته والوقوف أمام ظلمه وطغيانه.

ولكن كيف استطاع بنو إسرائيل التخلّص من هذا البلاء العظيم، هذا ما سنذكره في مرحلتهم الثانية.

٢.مرحلة الانتصار والتفضيل:

بعد أن جمع فرعون السحرة من كل حدب وصوب؛ ليواجهوا معجزة موسى (عليه السلام)، كما ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى} :قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.(١){

فهؤلاء السحرة مجتمعون لمواجهة آية موسى (عليه السلام) (العصا)، ينتظرهم كل النعيم المادي بجميع أشكاله، شريطة أن يقولوا للنّاس إنّ ما عند موسى (عليه السلام) إنّما هو سحر كسحرهم، وينتظرهم كلّ أنواع العذاب، والظلم والقهر إن هم أيّدوا موسى (عليه السلام) وقبلوا قوله بأنّ العصا ليست سحراً، بل هي معجزة من الله وآية منه ـ تعالى ـ.

---

(١)الأعراف: ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤.

وهذا الموقف الصعب الذي وقفه السحرة من أصعب المواقف التي عرفها التاريخ البشري، نظراً للظروف التي يعيشها السحرة، وأجواء الاختناق التي كانت تحيط بهم، ولا يحتاج هذا الموقف من ناحية صعوبته إلى توضيح أكثر؛ لوضوحه لمن تدبّر آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن هذا الموضوع؛ إذ يتّضح له إلى أي حدّ كان الموقف صعباً بالنسبة للسحرة، ولكنّ السحرة أمام هذا الموقف الصعب اختاروا رضى الله عزّ وجلّ بعد أن عرفوا أحقيّة موسى (عليه السلام) فيما ادّعاه، وبعد ذلك هدّدهم فرعون بعذابه وناره.

فرعون ذلك الكهنوت الظالم، الذي كان الخوف منه يجري في دماء بني إسرائيل، فهم منذ الولادة لم يعرفوا من فرعون إلاّ الظلم، والسحق والقهر، فهو الذي كان يبقر بطون أمهاتهم ويستحيي نساءهم ويقتل رجالهم، ومنذ ولادة موسى (عليه السلام) إلى أن بُعِث نبياً، وفرعون نفسه هو الحاكم لم يمت في هذه المدّة الطويلة، وهذا يدلّ على طول المدة التي حكم فيها، فالسحرة أمام رجلٍ قد خالط الخوف منه لحمهم ودمهم، فماذا سيكون موقفهم يا ترى؟!

لقد وقف السحرة موقفاً تخشع له الأرض والسماء، موقفاً من أشرف وأعظم المواقف التي عرفها التاريخ، كما يحكي القرآن الكريم ذلك حيث يقول{ :قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

السِّحْرَ فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى.(١)}

هذا الموقف العظيم، هو موقف التسليم لله عزّ وجلّ }اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ {يعني أنّنا سلّمنا وأسلمنا أمرنا لله ـ تعالى ـ وهو خيرٌ وأبقى.

نعم هذه المرحلة هي من أشد المراحل، التي واجهها بنو إسرائيل، ولكنّهم بصبرهم وتحمّلهم وجهادهم خرجوا من هذه المرحلة منتصرين فائزين، وهذه المرحلة التي انتصر فيها بنو إسرائيل تسمى (مرحلة التسليم لله تعالى)، ولكن هناك مراحل أخرى تنتظرهم، فلننظر ماذا يفعلون فيها، هل ينتصرون أم يسقطون، كما سقط إبليس ومن سلك مسلكه؟

وقبل أن نذكر المرحلة الثالثة، لابدّ أن نشير إلى أنّ الله عزّ وجلّ، قد مدح بني إسرائيل وفضّلهم على العالمين؛ كل ذلك من أجل المرحلة الثانية التي تسمى (مرحلة التسليم لله) فقد جاءت آيات كثيرة

(١)طه: ٧١، ٧٢، ٧٣.

تمجّدهم وتشيد بهم وبعملهم، وتذكر فضلهم ومقامهم كما في قوله تعالى{ :يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.(١)}

ولقد باء بنو إسرائيل بفضل عظيم، ولكن يا ترى هل يستمر هذا المجد وهذا التفضيل؟ هذا ما نلاحظه في المرحلة الثالثة.

.٣مرحلة الانقلاب والانتكاس:

بعد أن فضّل الله بني إسرائيل ـ وذلك بسبب خضوعهم لموسى (عليه السلام) المختار من قبل الله عزّ وجلّ، ابتلاهم الله بنفس ما ابتلى به إبليس وأولاد يعقوب، وغيرهم حيث استمرت الحكمة الإلهية بانتقاء واصطفاء بعض بني إسرائيل على بعض، فقد ورد في الروايات أنّ الله عزّ وجلّ اختار من بني إسرائيل أربعة آلاف نبي، ولكن كما حكى القرآن الكريم عنهم حيث يقول ...} :أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ .(٢){إن مشكلتهم هي الاستكبار على المختار من قبل الله عزّ وجلّ، وهذه هي مشكلة أكابر المجرمين في كل زمان ومكان، فإنها كانت مشكلة إبليس، حيث استكبر وأبى أن يسجد لآدم (عليه السلام) وقال أنا خير منه، وهي مشكلة

---

(١)البقرة: ١٢٢.

(٢)البقرة: ٨٧.

أولاد يعقوب، فلم يخضعوا ليوسف إلاّ بعد ما عجزوا عن الإطاحة به، وهي مشكلة أكابر قريش، وغيرهم من أكابر المجرمين الذين يضلّون عوامّ الناس تحت عناوين برّاقة.

فبنو إسرائيل بسبب هذه المشكلة سقطوا إلى أسفل سافلين، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب على غضب، ووصف حالهم ـ تعالى ـ حيث يقول{ :قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ.(١)}

فيجب على المسلم ان يعتبر ولا يقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من الخطأ الكبير، بل ينبغي عليه الإسراع في التسليم والخضوع للمختارين من قبل الله عزّ وجلّ ولا يستكبر عليهم أبداً، وينبغي عليه أن يصرف كل همّه للبحث، والتعرف على المختارين من قبل الله عزّ وجلّ ويستعين في ذلك بطول الدعاء، وإدامة الإصرار على الله عزّ وجلّ حتى يرشّحه لمقام معرفة المختارين من قبله عزّ وجلّ.

هكذا استمرّ بنو إسرائيل في السقوط، كما سقط إبليس وقابيل وغيرهما من المفسدين، ولكنهم في فترة من الزمان انتبهوا من غفلتهم، وعرفوا سرّ سقوطهم، وهو معارضتهم وعنادهم لخيرة الله

---

(١)المائدة: ٦٠.

عزّ وجلّ وصفوته منهم، وعرفوا أنه لا يمكن أن يصلح لهم شأن إذا لم يسلّموا أمورهم لرجل يختاره الله عزّ وجلّ عليهم وهذا ما سنذكره في المرحلة الرابعة.

٤.مرحلة الانتباه ومعرفة سرّ السقوط:

تنبّه بنو إسرائيل لسرّ سقوطهم وذلّهم وسحقهم، وهو معاندتهم لصفوة الله، وعلموا أنّه لن تقوم لهم قائمة، إذا لم يسلموا لمن يختاره الله ولياً وحاكماً عليهم، لذلك لجأوا إلى نبي لهم، وقالوا ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وهو ما جاء في قصة طالوت (عليه السلام) في قوله تعالى{ :أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ.(١)}

---

(١)البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧.

هذه الآيات الكريمات تذكر قصة طالوت (عليه السلام) وتبيّن أن بني إسرائيل عرفوا أنّه لا خلاص لهم من الذل والهوان، إلاّ اللجوء إلى رجل يختاره الله عزّ وجلّ لهم قائداً وإماماً.

وفي هذه الآيات دروس وعبر ومن جملتها:

١.معرفة بني إسرائيل لسرّ الفلاح، وهو التسليم لمن اختاره الله عزّ وجلّ واجتباه.

٢.مع معرفتهم اليقينية بذلك إلاّ أنّهم لمّا اختار الله عزّ وجلّ رجلاً منهم وهو طالوت؛ إذا بهم يعترضون على خيرة الله عزّ وجلّ كما اعترض إبليس، وقابيل وأكابر المجرمين، ومن شاكلهم من أعداء الله المعاندين لاختيار الله عزّ وجلّ في كلّ زمان

ومكان، وقالوا: نفس الكلمة الشيطانية {نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ} {كما قال: إبليس {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ} {وقالوا: {لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} {وقال إبليس}: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ.}

وهكذا دائماً يبدأ النزاع والخلاف، ثم يتحوّل إلى فرق ومذاهب، كل حزب بما لديهم فرحون.

ولكن بني إسرائيل كانوا في ظروف صعبة، أجبرتهم على التسليم لولي الله وخيرته طالوت (عليه السلام) ؛ مع أنّ نبيهم قد بيّن لهم أنّ

مسألة الولاية ـ بأي نوع كانت ـ هي بيد الله يعطي ملكه من يشاء، فلماذا الناس دائماً يريدون أن ينازعوا الله عزّ وجلّ في ملكه؟!

٣.بما أنّ بني اسرائيل كانوا غير راضين في أوّل الأمر بولاية طالوت، أراد الله عزّ وجلّ امتحان إيمانهم فابتلاهم ببلاء عظيم، وهو النهر الذي منعهم عن الشرب منه، كما قال تعالى}:{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو الله كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ.(١)}

هكذا ابتلاهم الله على يد وليّه؛ ليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، ولم يبقَ مع طالوت إلاّ الذين أخلصوا وسلّموا تسليماً، وأكثر من ثبت معه هم أهل الآخرة، الذين يعلمون، ويوقنون أنّهم ملاقوا الله عزّ وجلّ والذين جاؤوا من أجل نيل الشهادة.

هذه الآيات الكريمة تعلمنا دروساً عظيمة نحتاج إليها كثيراً في هذه الحياة، فمنها أن طالوت مع كونه غير نبي حرّم على أتباعه ما أحلّ لهم موسى، وجميع من سبقه من الأنبياء، وهو الماء، بل الأعجب

(١)البقرة: ٢٤٩.

منه أنه أباح لهم غرفة واحدة، وحرّم الغرف الأخرى، والماء واحد والحال واحد، وهذا هو قمة ابتلاء الإيمان والخضوع، فلو فرضنا أنفسنا مكان أصحاب طالوت، هل سنتحمل منه هذا الأمر الذي يبدو كأنه تحكّم واستخفاف بالأتباع مع أنه لم يكن نبياً ولا هو ذو مقام ولا ذو مال في قومه قبل اختياره للقيادة، إنه موقف صعب يحتاج الى درك كبير لمقام المختارين من قبل الله عزّ وجلّ حتى ولو لم يكونوا من الأنبياء، ولا المرسلين، فلو أخذ رجل ـ ثبت لي أنه مختار من قبل الله ـ رمانة

وشقها نصفين، ثم قال لي هذا النصف حرام عليك، وهذا حلال، هل عندي استعداد لأن أخضع له في مثل هذا الأمر الذي يبدو وكأنه عبث؟ إذا لم أشعر من نفسي بتقبل هذا الأمر وأمثاله، فيجب علي أن أراجع حساباتي، وأجدد النظر في أمر إيماني بالله عزّ وجلّ، ومن تلك الدروس أيضاً أننا نرى أن بني إسرائيل لمّا سلّموا أمرهم لخيرة الله، وصفوته نالوا العزّ والمجد في الدنيا والآخرة، ولكنهم بعد ما انحرفوا عن تلك الحال، وعادوا إلى عادتهم الخبيثة، وهي محاربة أولياء الله وخيرته، كانت نتيجة عملهم أن سلب الله ـ تعالى ـ منهم شرف النبوة إلى يوم القيامة، وأبدلهم بالعزةِ الذلةَ والهوان والمسكنة إلى يوم القيامة.

فلنعتبر ممّا حدث لبني إسرائيل، وإلاّ نزع الله منّا شرف الإسلام، والدين الحق إلى يوم القيامة، فالله عزّ وجلّ ليس بينه، وبين أحد هوادة.

موقف بني إسرائيل من نبي الإسلام

لقد بشّر الله عزّ وجلّ على لسان أنبيائه في الكتب السماوية السابقة، بمبعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله)، لذلك كان أعرف الناس به (صلّى الله عليه وآله) هم أهل الكتاب الذين كانوا يهيئون أنفسهم لاستقباله ويبشرون الناس بمقدمه (صلّى الله عليه وآله)، ولمّا اختاره الله من العرب ومن ذرية إسماعيل (عليه السلام) بالخصوص، وكان اليهود يتوقعون أن يكون منهم، أي من ذرية إسحاق تغيّر كلّ شيء.

ماذا حدث؟ وماذا فعل اليهود يا ترى؟

هذا ما أجاب عنه القرآن الكريم حيث بيّن أنهم (أي اليهود) بدلاً من أن يكونوا خير أنصار وأعوان لرسول الله (صلّى الله عليه وآله)، كانوا أشدّ الناس له عداوة، وبذلوا كلّ ما في وسعهم من أجل قتله (صلّى الله عليه وآله)، أو تفريق أنصاره عنه، ومن يطالع التاريخ يجد أنّ أكثر من حارب الرسول (صلّى الله عليه وآله) بعد قريش، هم اليهود وهم أشد عداوة من غيرهم كما قال تعالى} :لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ.(١){

(١)المائدة: ٨٢.

فكانوا يمكرون ويخدعون، وينقضون عهودهم ويغدرون، ويتخذون أخبث الحيل وأشدّها مكراً، ليطفئوا نور الله الذي تجلّى في محمد (صلّى الله عليه وآله)، ومن حيلهم ومكرهم، أنّهم كانوا يوصون بعضهم أن يؤمن بالإسلام في الصباح، وبعد الظهر يكفر به لكي يحدث للمؤمنين إحباط نفسي، ففي الصباح يستبشر المؤمنون بإيمان أحد من أهل الكتاب، الذي يعتبر حجة كبيرة على البقية من المعاندين، ولكنّه بعد الظهر يبدأ بإظهار الشك في الإسلام لكي يحطّم معنويات المسلمين ويردّهم إلى الكفر، كما قال تعالى} :وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.(١){

هكذا حارب اليهود الإسلام، وكم وكم من أمثلة تؤكد هذا الحقد اليهودي وتفضحه، فكل من لديه أدنى مطالعة للتّاريخ، يعرف جيداً ماذا صنع اليهود وكيف بذلوا الغالي والنفيس من أجل الإطاحة برسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وحتى بعد وفاته (صلّى الله عليه وآله)! وإلى يومنا هذا، ونحن نرى هذا الحقد اليهودي، يتجلّى كل يوم في ثوب جديد.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا كل هذا الحقد والحرب ضد الإسلام ونبيّه؟

---

(١)آل عمران: ٧٢.

والجواب: قد يتصوّر البعض أنّ السبب هو أنّ اليهود كانوا على طريقة معينة من عبادة الله عزّ وجلّ، حيث كانت قبلتهم بيت المقدس، وكانت صلاتهم تختلف عما جاء به رسول الإسلام (صلّى الله عليه وآله)، وغير ذلك، ولشدّة حرص اليهود على دينهم قاموا ضد الإسلام، وأعدوا أنفسهم لمحاربته.

فهل هذا هو السبب الواقعي لحرب اليهود للإسلام يا ترى؟

مع ملاحظة أن هذا ما يتعلل به اليهود!.

القرآن الكريم لا يقبل هذا التعلل، بل كشف النقاب عن أسباب هذه الحرب الظالمة، حيث بيّن أن مشكلتهم، هي نفس مشكلة إمامهم إبليس، وهي أيضاً مشكلة أكابر المجرمين في كل مكان وزمان، حيث بيّن القرآن الكريم أنّ المشكلة ليست بسبب اختلاف الفقه الإسلامي مع الفقه اليهودي، وليست بسبب اختلاف بعض العقائد اليهودية مع العقائد الإسلامية، إنما المشكلة هي: (عدم الرضى والتسليم للاختيار الإلهي)؛ لذلك لمّا أراد اليهود طرح بعض المسائل العقائدية، ليحتجوا على الرسول (صلّى الله عليه وآله) ويقولوا له مثلاً: أنت لم تأت بما يوافق عقائدنا، أجاب الله على لسان نبيه جواباً قاطعاً للشك والريب، وبيّن أنّ هذه العلة إنّما هي محاولة فاشلة للتهرب من السبب الواقعي الذي حارب اليهود الإسلام من أجله.

جاء في سورة آل عمران ما يشير إلى مراوغة اليهود، وفرارهم عن طرح السبب الحقيقي للنزاع، حيث طرحوا بعض المسائل العقائدية؛ لكي يتخذوها عذراً لعدم قبولهم الإسلام، قال تعالى} :الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.(١){

انظر أخي القارئ كيف احتج عليهم القرآن الكريم، احتجاجاً قاطعاً لا يترك لهم عذراً، فما دمتم ـ أي اليهود ـ قد قتلتم الأنبياء من قبل ـ أي من قبل الرسول (صلّى الله عليه وآله) ـ مع أنهم جاؤوكم بالبينات وبالذي قلتم، ـ أي بالقربان الذي تأكله النار ـ إذن أنتم كاذبون في ادّعائكم، بل مغالطون تريدون أن تحرفوا المسألة وتجعلوا السبب في محاربتكم للإسلام هو مذهبكم وعقائدكم، ولكن هذا كذب، فلو كنتم صادقين في هذا الادعاء، لما فعلتم بأنبياء الله ما فعلتم.

إذن هناك سبب آخر يوضّحه الله عزّ وجلّ في آيات كثيرة في كتابه الكريم، نذكر منها الجزء القليل والباقي نتركه للمتتبع لكتاب الله عزّ وجلّ حتى يكتشف هو أكثر فأكثر، قال تعالى} :وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا

(١)آل عمران: ١٨٣.

جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ.(١){

هكذا بيّن القرآن الكريم سرّ عناد اليهود وحربهم للإسلام، نعم، إنّه سرّ الخلافات والنزاعات وأساسها وسبب تفرّق الأمم والمذاهب، وهو عدم التسليم لمن اختارهم الله عزّ وجلّ عناداً واعتراضاً، وليس هو اختلاف الآراء الفقهية والعقائدية والمذهبية، بل إن رأس الفتنة، هو منازعة المختارين، الذين اختارهم الله واصطفاهم وعدم التواضع والتسليم لهم.

وما من أحد يقول حينما يختار الله عزّ وجلّ غيره أنا أحاربه لأنّ الله اختاره واصطفاه، فهو يعلم ـ إن قال مثل هذا الكلام ـ أنّ الناس لا يقبلونه، وسيحاربونه، وسينصرون المختار من قبل الله عزّ وجلّ، ولذا يضطر المعاند للاختيار الإلهي إلى اختلاق الأعذار المذهبية والدينية كما فعل اليهود، حيث كانوا يقولون عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، إن هذا الرجل يخالف عقائدنا، هو يقول كذا ونحن نقول كذا، وهكذا يبررون لأنفسهم سوء عملهم، ويخدعون عامة الناس تحت ستار حماية الدين والعقيدة.

(١)البقرة: ٨٩، ٩٠.

ومن يتأمل في الآيات السابقة يجدها واضحة الدلالة في هذا المطلب، فاليهود كانوا ينتظرون ظهور نبي آخر الزمان، وكانوا كما قال الله تعالى} :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.(١){

قال الآلوسي في روح المعاني في ذكره الضمير في يعرفونه قال: ((وضمير (يعرفونه) لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) وإنْ لم يسبق ذكره ذكر الرسول (صلّى الله عليه وآله)، لدلالة قوله تعالى} :كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ {عليه، فإن تشبيه معرفته بمعرفة ـ الأبناء ـ دليل على أنّه المراد.(٢))(

فاليهود كانوا يعرفون الرسول (صلّى الله عليه وآله) كما يعرفون أبناءَهم، وكما قالت الآيات التي كنّا بصددها، حيث بيّنت أنّه لما جاءَهم ما عرفوه ولم ينكروه، وما علموه ولم يجهلوه، كفروا به، وهم كانوا من قبل يبشّرون بقدومه (صلّى الله عليه وآله) ويستفتحون على الكفار ـ أي يطلبوا النصرة على الكفار به (صلّى الله عليه وآله)، قال الآلوسي بعد ذكره قوله تعالى} :وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ)) :(٣){نزلت في بني قريظة والنضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (صلّى الله عليه وآله) قبل مبعثه

(١)البقرة: ١٤٦.

(٢)روح المعاني، الآلوسي ١: ٤١١، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

(٣)البقرة: ٨٩.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة: والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين، كما روى السدي: أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين، أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبيّ (صلّى الله عليه وآله)، وقالوا: اللّهم إنّا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون...)).(١)

من هذه الآية الكريمة وغيرها نفهم جيداً أنّ اليهود وأهل الكتاب بشكل عام كانوا يعرفون الرسول (صلّى الله عليه وآله) تمام المعرفة، ويعرفون أنّ ما يدّعيه حق لا شك فيه!

فلماذا حارب أهل الكتاب هذا النبي الأمي، الذي يجدونه عندهم مكتوباً؟!

كما أشرنا سابقاً، وقلنا إنّ القرآن الكريم أجاب بوضوح عن هذا السؤال، وذلك بعد ذكر الآية التي ذكر فيها ـ تعـالى ـ أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قال تعـالى مبيّـناً العلّة والسبب الواقعي بقوله} :بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ{، لماذا يكفرون بما أنزل الله }بَغْيَاً {وعناداً واعتراضاً }أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ {ونتيجة هذا البغي والعناد }فَبَآؤُواْ

(١)الآلوسي، روح المعاني ١: ٣١٩، ط دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ {المغطين الكاتمين الحق، الذي هو الاعتراف بالرسول (صلّى الله عليه وآله} (عَذَابٌ مُّهِينٌ.(١)}

هكذا بيّن القرآن الكريم، ووضّح أنّ اليهود لم يكونوا جُهالاً، بل كانوا عارفين للرسول (صلّى الله عليه وآله) معرفتهم بأولادهم، ولكن لم تمنعهم معرفتهم من العناد، والعمى، كما كان إبليس وقابيل، وكثير من أكابر المجرمين، الذين حاربوا أولياء الله حقداً، وحسداً، وعناداً، واتخذوا المذاهب والفرق، وما تعارف الناس وما اعتادوه، وسيلة إعلامية لإثارة الضجة ضد المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، ولتحريك عوامّ الناس والهمج الرعاع ضدهم؛ فالمشكلة إذن ليست هي المذاهب والفرق، بل المشكلة دائماً تبدأ من أشخاص معدودين يعارضون من اختاره الله عزّ وجلّ، ثم يضلّون من تبعهم من الناس تحت ستار أمور عقائدية فتنشأ مع مرور الزمان، المذاهب والفرق، وما شابه ذلك.

وفي الواقع هذا نتاج ما أقسم عليه إبليس من إضلال أولاد آدم (عليه السلام) أجمعين إلاّ عباد الله منهم المخلصين!

فما هي جريمتنا يا ترى؛ حتى يقسم إبليس أن ينتقم منّا بسببها؟

جريمتنا واضحة، وهي تفضيل الله سبحانه لأبينا آدم (عليه السلام) على

(١)البقرة: ٩٠.

إبليس؛ وكذلك ما هي جريمتنا التي حاربنا اليهود من أجلها؟ إنها ـ وبدون شك ـ اختيار الله لرسوله محمد (صلّى الله عليه وآله) منّا.

هكذا يفضح الله عزّ وجلّ اليهود وأمثالهم، من الظالمين، ويحذّر العوامّ، وأهل الأهواء الذين يتبعون كلّ ناعق، يتبعون من يدعونهم بدون بصيرة وتفكر، حذّر المولى عزّ وجلّ هذا القسم من الناس بقوله تعالى} :إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ

اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار.(١){

لذا يجب أن نحذر، ونركّز على هذه المسألة، ونبحث عن الذين اختارهم الله عزّ وجلّ، ولا نشغل أنفسنا بالمسائل الأخرى، فإنها لا تنتهي أبداً، وكلّ يوم تظهر مسائل وشبه جديدة، ومن عرف أولياء الله عزّ وجلّ وخيرته واتبعهم فلا عليه أوَقع على الموت أم وقع الموت عليه، لأنّه على يقين، يأخذ دينه من المبلغين المختارين لهذا الأمر من الله عزّ وجلّ لا من عند أنفسهم، ومن لم يعرف أولياء الله عزّ وجلّ وخيرته فسوف يبقى في ضلال وتخبّط، كل يوم يشك في بعض ما عنده ويؤمن بغيره، وهكذا حتى يلقى الله عزّ وجلّ وهو على ضلاله.

---

(١)البقرة: ١٦٦، ١٦٧.

فأخطر المسائل وأهمها هي مسألة الولاية.

وقد يقول قائل: هل من أجل هذا السبب حاربت قريش الإسلام؟

وهذا ما يبيّنه القرآن الكريم ويوضّحه.

موقف قريش من الإسلام

لماذا حاربت قريش الدين الإسلامي؟

لماذا بذلت قريش الغالي والنفيس من أجل الإطاحة بالإسلام؟

لماذا ضحّت قريش بأعزّ رجالها وأشجعهم وقدّمتهم للموت؟

إذا سألنا كبار قريش عن السبب، فسيتعللون، كما تعلّلت اليهود، وغيرهم من المعاندين، بأن محمداً سفّه أحلامنا وكفر بآلهتنا، وساوى بيننا وبين عبيدنا؛ سنسمع لهم شكاوى تستعطف القلوب، ومن تلك الشكاوى: أنّ محمداً أذلّ كبارنا، واستخف بصغارنا، وفرّق شملنا وأضحك العدو علينا.

هل يا ترى يقبل الله عزّ وجلّ هذه الأعذار الواهية ويؤيد دعواهم، أم أنّه عزّ وجلّ يفضحهم كما فضح اليهود، ويبيّن أنّ السبب والسرّ الذي حاربوا الإسلام من أجله، هو شيء آخر؟

القرآن الكريم لا يقبل هذه الدعاوى المزخرفة؛ لأنّه من لدن عزيز حكيم عليم بذات الصدور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولذا كشف القرآن الكريم ما أخفت صدورهم ويبين سبب كفرهم وإعراضهم، وهذا واضح في صريح الآيات المحكمات.

قال تعالى} :فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(١){؟.

وهذا السؤال طرح؛ كي يلفتنا القرآن الكريم إلى أهمية الموقف وخطورته، ويلفتنا أيضاً إلى التوجه والتركيز على الجواب، وقبل الإجابة يشبّه الله عزّ وجلّ الكفار تشبيهاً عجيباً، فشبههم بالحُمر المستنفرة، وذكر أهل التفاسير أن }حُمُرٌ {جمع حمار، والمراد بها هنا الحمر الوحشية، والملاحظ أنّ الحمر الوحشية مستنفرة دائماً، ومع ذلك يقول الله عزّ وجلّ لكي يبيّن شدّة استنفارها }حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ.{

ثم مِنْ ماذا مستنفرة؟ هل من إنسان؟ لا بل من أسد، وهذا الأسد أسد مفترس أيضاً، كما ذكر المفسّرون، والملاحظ أيضاً في هذا التشبيه الدقيق هو أنك ترى الحيوانات الأخرى غير الحمر مثل القط والكلب، وغيرهما غالباً إذا هربت من شيء يخيفها، تراها تهرب، ولكنها في حالة الهرب تكون ملتفتة إلى طريقها فلا تضلّ الطريق، ولا تسقط في الحفر ولا تقع على الأشواك، ولكن الحمر المستنفرة حينما تهرب غالباً تفقد توازنها، فتراها تقوم وتسقط، وتقتحم ما أمامها حتى لو كان فيه هلاكها.

هكذا شبّه القرآن الكريم المعاندين ومن جملتهم زعماء قريش بالحمر المستنفرة التي فرت من قسورة، لكي يبين سوء حالهم، وأنهم

(١)المدّثر: ٤٩.

تماماً مثل تلك الحمر التي تقتحم ما أمامها حتى لو كان الذي أمامها جهنم.

وبعد أن سألت الآية السابقة عن سرّ إعراضهم عن التذكرة، أجابت الآيات اللاحقة بقوله تعالى} :بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً(١){، ولماذا يا ترى كلّ واحد وكل امرىءٍ منهم يريد أن يؤتى صحفاً منشّرة؟

والجواب } :كَلا بَل لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ.(٢){

قال ابن كثير: ((وقوله تعالى} :بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٣){أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قاله مجاهد وغيره، كقوله تعالى } :وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (٤)(({انتهى كلام ابن كثير.

وهناك آيات كثيرة تبيّن أن قريشاً لم يكن حربها للإسلام بسبب العقيدة، فقريش كانت فاقدة للعقيدة؛ ولذا يُروى أن أحد القرشيين ذات مرّة صنع له إلهاً من تمر، ثم لما جاع أكله، لكي يحوله إلى عالم

---

(١)المدثر: ٥٢.

(٢)المدثر: ٥٣.

(٣)المدّثر: ٥٢.

(٤)تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٦، المطبعة: دار المعرفة ـ بيروت.

المنفيات والنجاسات، وهذه القصة تشير إلى أي حد كانت قريش تتعامل مع الأصنام، فلو كان هناك أدنى اعتقاد لما تجرّأ ذلك الرجل على أكل معبوده بعد أن عبده، فالمسألة كانت سياسية، فكبار قريش قد استفادوا من الأصنام استفادة كثيرة، حيث جعلوا من أنفسهم الناطق الرسمي باسم الآلهة، يحرمون ما شاءوا ويحلّون ما شاءوا، ويؤمّنون قوافلهم التجارية، حتى وصل الأمر إلى أنه حتى قطاع الطرق يحترمون قوافل قريش.

ويبيّن القرآن الكريم في مكان آخر السرّ الذي حاربت قريش الإسلام من أجله، حيث بين أنه ليس مسألة الإيمان بالله عزّ وجلّ، فإنّ قريشاً كانت تعترف بالله عزّ وجلّ، ومعرفة الله عزّ وجلّ هي من الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، كما في قوله تعالى} :وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(١){، وقوله تعالى}:وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٢){، وقوله تعالى} :وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله(٣){...، وقوله تعالى} :وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

---

(١)العنكبوت: ٦١.

(٢)الزخرف: ٩.

(٣)الزمر: ٣٨.

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ.(١)}

من هذه الآيات الكريمات يتّضح أن مشكلة قريش مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ليست بسبب عدم معرفة الله عزّ وجلّ، فهم يعرفون أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي خلق السموات والأرض، كما هو واضح، إذن ما هو سبب حربهم للرسول (صلّى الله عليه وآله)؟.

القرآن الكريم يجيب عن هذا السؤال، ويفضح كفار قريش ونظرائهم، كما فضح إبليس، بقوله تعالى} :وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.(٢)}

قال ابن كثير حول هذه الآية وهو يفسّر قوله تعالى}((: قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ {الآية أي أنت المتصرف في خلقك الفعّال لما تريد كما تريد كما ردّ ـ تعالى ـ على من يحكم عليه في أمره حيث قال} :وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ {قال الله ردّاً عليهم }أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ {الآية، أي نحن نتصرّف فيما خلقنا، كما نريد بلا مانع ولا دافع، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى} :اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ {وقال تعالى} :انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ{

(١)لقمان: ٢٥.

(٢)الزخرف: ٣١.

الآية.(١))((

وقال ابن كثير في مورد آخر حول الآية المذكورة: ((يعنون لولا نزّل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجّل في أعينهم، }مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ {أي من مكة والطائف، وذلك أنهم ـ قبّحهم الله ـ كانوا يزدرون بالرسول (صلّى الله عليه وآله) بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبراً عنه }وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً{، وقال تعالى} :وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ{، وقال تعالى} :وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون .{هذا، وهم معترفون

بفضله، وشرفه، ونسبه، وطهارة بيته، ومرباه ومنشئه ـ صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه ـ حتى أنهم كانوا يسمّونه بينهم قبل أن يوحى إليه، الأمين، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم.(٢)((...

هذه الآية الكريمة بيّنت ما هي مشكلة قريش مع الرسول (صلّى الله عليه وآله)، فإنهم معترضون على الحكمة الإلهية وهي نزول القرآن على رجل من القريتين ـ أي مكة والطائف ـ ولكن هذا الرجل الذي من مكة ليس

---

(١)تفسير ابن كثير ١: ٣٦٤، المطبعة دار المعرفة ـ بيروت.

(٢)تفسير ابن كثير ٢: ١٧٩.

بعظيم في نظرهم، بل هو رجل عادي ـ أي لم يكن تاجراً، ولم يكن شيخ عشيرة كبيرة، ولم يسفك الدماء لتكون له الشهرة والوجاهة عندهم بذلك العمل.

إنّ مشكلة قريش هي مشكلة إبليس، ومشكلة بني إسرائيل، نعم، إنك تجد نفس المشكلة عند قريش، فهم يرون أنّ محمداً (صلّى الله عليه وآله) لم يؤتَ سعة من المال، وأنّ مشائخ عشائرهم خير منه فلا يعتبرونه عظيماً، ولذلك قالوا{ :لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }يعني أنهم لم يمنعهم من الإيمان بهذا القرآن إلاّ هذا السبب، وهو عدم نزوله على رجل عظيم في نظرهم!

وقد أجاب الله عزّ وجلّ على كلامهم هذا في الآية التي تلت تلك الآية؛ حيث قال تعالى{ :أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١)}، وهذه الآية الكريمة ناقشت عقولهم، وخاطبت ضمائرهم، وقالت لهم: هل أنتم تقسّمون رحمة الله؟! أفلا ترون أنّ الله هو الذي قسّم بينكم معيشتكم وأرزاقكم في الدنيا، والتي بسببها أصبح من تحسبونه عظيماً عظيماً، والله عزّ وجلّ هو الذي قسّمها بينكم، ولم يكن لكم دخل في

---

(١)الزخرف: ٣٢.

تقسيمها، ولمّا لم تعترضوا على الله عزّ وجلّ في ذلك، فكيف تعترضون عليه في تقسيمه للمناصب الإلهية، التي يختص بها من يشاء من عباده؟!

مع هذا كلّه، ومع هذه الحجج القرآنية الواضحة أصرّت قريش على عنادها وكبرها، ولم ترض بالاختيار الإلهي.

ثم إنّ قريشاً بعد ذلك لجأت إلى طريقة جديدة لمحاجة الإسلام، وهي قولهم كما حكى القرآن الكريم ذلك عنهم{ :أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ.(١)}

فقريش ومن شاكلهم يريدون أن يقولوا كذباً وظلماً: إنّ أصنامهم هي الطريق الموصل إلى الله عزّ وجلّ، وذلك أنه قد يكون معنى اتخاذهم لأوليائهم سواءً كانوا أصناماً، أم بشراً، أم غير ذلك، بمعنى اتباعهم لهم، وإطاعتهم إياهم، ولكنّ الله لا يهدي من هو كاذب في ادعائه، كفار بخيرة الله عزّ وجلّ من خلقه.

فالقرآن الكريم لم يقبل هذا التهرّب من قريش، بل إن القرآن الكريم حدّد الطريق الواقعي والصحيح، الذي يقرب إلى الله عزّ وجلّ،

---

(١)الزمر: ٣.

ويوصل إلى رضاه بقوله تعالى{ :قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ.(١)}

ومن هنا يتّضح الأمر، فإن قريشاً تدّعي حبّ الله عزّ وجلّ، وأنها تريد أن تتقرب إليه زلفى، لكنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل هذا الحب وذلك التقرب، إلاّ من حيث شاء هو عزّ وجلّ لا من حيث تشاء قريش، ومن شاكلها من المعاندين والمتكبرين.

فمن أراد محبة الله عزّ وجلّ والقرب منه، فلابدّ له من اتباع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أو من أوصى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) باتباعه.

فتحصل من هذا أن مشكلة أكابر قريش واضحة، وهي لماذا اختار الله عزّ وجلّ رجلاً فقيراً في نظرهم، وليس من أعاظمهم، ولا من مشائخهم وكُبرائهم، وهذه هي المشكلة الحقيقية لهم ولأمثالهم.

وكذلك اتضح أن قريشاً لم تضحِّ بأعز رجالها، وأوفر أموالها حبّاً وفداءً من أجل الأصنام، ومن أجل العقيدة، بل كانت الأصنام ذريعة يستعطفون بها قلوب العوام، وأصحاب العقول الضعيفة، ويتّضح أيضاً من آيات أُخرى أن قريشاً لم تكذب الرسول (صلّى الله عليه وآله)، بمعنى انّها لم تعرف الحق، ولم يتّضح لها أن الرسول (صلّى الله عليه وآله) صادق في دعواه، بل كانت تكذبه عناداً وجحوداً كما قال تعالى{ :قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ

---

(١)آل عمران: ٣١.

لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ.(١){

فانهم يجحدون؛ لأنّ الله عزّ وجلّ لم ينزل القرآن الكريم على رجل من القريتين عظيم عندهم، لأنّ الله لم يختر الوليد للرسالة، ولم يختر أبا سفيان، لأنّ الله اختص برحمته من يشاء، لأن الله اختار لرسالته محمد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله)، لذلك يجحدون، نعم إنّ هذه هي المشكلة التي جعلت قريشاً تفرّ من الإسلام فرار الحمر المستنفرة، وقد أضرّوا بالإسلام كثيراً، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطفئوا نور الله عزّ وجلّ، كذلك كان دأب إبليس، ومن شاكله، وهذا هو دأبهم إلى يوم القيامة، وهو دأب اتباعهم في كل زمان ومكان.

(١)الأنعام: ٣٣.

سبب الاختلاف بين الناس

لقد تبيّن ممّا سبق سرّ نزاع إبليس لآدم (عليه السلام)، وأخوة يوسف لأخيهم، واليهود لأنبيائهم، ولنبينا محمد (صلّى الله عليه وآله)، وقريش للرسول (صلّى الله عليه وآله)، فهل يمكن أن نقول: إنّ هذا السبب هو السبب الأصلي لكل الاختلافات الاساسية على وجه الأرض؟

والجواب: أنّه يمكن تعميم هذه المسألة على جميع الخلافات، وذلك عندما نرى السرد القرآني لهذه الأمثلة الكثيرة التي تبين هذا المطلب، فيلزمنا من ذلك الاعتبار من تلك القصص، وأن نعرف أن قضايا تلك القصص، لو كانت هامشية، لما ذكرت في القرآن الكريم وكرّرت أيضاً.

ومع هذا الوضوح كلّه لم يترك القرآن الكريم التصريح بهذه العلّة وبهذا السبب، وبيّن بإنّ سبب كل نزاع في كل قرية، منذ أن خلق الله الأرض إلى يوم القيامة، هو المنازعة لأجل التسلّط على الأرض، والمنافسة من أجل الحصول على الملك، وعلوّ الكلمة، سواءً كان الوصول الى تلك الاهداف من طريق السعي لنيل المناصب الإلهيـة ـ مـن قبـيل النبـوة والامامة والقيادة الدينية ونزول الوحي

و.. و..؛ لأنها أفضل طريق لأن تكون كلمة أصحابها هي العليا ـ أو من غير ذلك.

وقبل أن أسرد الآيات التي تشير إلى ذلك الموضوع، أود أن أُشير إلى مسألة وهي: أنّه لا يعني أن المسائل العقائدية ـ غيرالنبوة والولاية وما هو في هذه الدائرة ـ ليس لها دور في الاختلافات الموجودة لا، بل لها دور، ولكن المهم هو لماذا وجدت هذه الاختلافات العقائدية، بعدما جاءت البينات؟

الجواب: من الواضح ففي بدء ظهور النبوات والرسالات تكون الأمور واضحة، والحجج ساطعة، والناس على بيّنة ووضوح من أمرهم، ولكنه يوجد متكبرون وطغاة يريدون العلو في الأرض، وبما أن الظروف في بداية الأمر لا تسمح لهم بالوصول إلى غاياتهم لذا يلجأون إلى البحث عن المسائل التي ينهى عنا المختار من قبل الله عزّ وجلّ فيقومون بإحيائها وتحريك العوام من أجلها، ومن هناك تبدأ الإثارات ويبدأ اختلاق المسائل الخلافية، لتصبح الأمور معكّرة وغير واضحة، وهنا يصطادون ـ أي أكابر المجرمين ـ في الماء العكر، ويستقطبون ضعاف النفوس بشتى الوسائل، فيصلون إلى أهدافهم المشؤومة، ومن طرقهم وأساليبهم الخبيثة، أنهم يبحثون عن العقائد التي يرتاح لها الناس، فيروجون لها، وينظرون فيما يقوله المختارون من قبل

الصفحة ٦٤

الله عزّ وجلّ، فيجدون بعض المسائل، التي قد لا يستسيغها بعض العوام، فيستفيدون من ذلك، ويبدأون بتشكيك الناس، فيحرمون للناس ما يحب الناس تحريمه، ويحلون لهم ما يحبّون تحليله، فهم عكس المختارين من قبل الله عزّ وجلّ الذين لا يتصرفون في أمر الدين كما يشاؤون، فلذا نرى الناس قليلاً قليلاً يبتعدون عن المختارين من قبل الله عزّ وجلّ ويميلون إلى أعدائهم، ثم بعد ذلك تتكوّن على طول الزمان العقائد المخالفة.

ثم يأتي أناسٌ مغفّلون، فينشغلون عن السبب الواقعي للاختلاف والنزاع، ويفنون أعمارهم في النقاشات العقائدية، كلّما انتهوا من مسألة ظهرت أخرى وهكذا، ولو أن الناس سلّموا لمن اختارهم الله عزّ وجلّ لما بقوا في الاختلافات التي لا تنتهي ولما بقوا في العذاب المهين، فإن الناس لو سلموا الأمر لأهله الذين اختارهم الله عزّ وجلّ لما كان عليهم إلاّ السؤال فقط، ويستلمون الجواب الصافي، الذي لا تشوبه شائبة، ولكن بسبب المعاندين والمتكبرين في الأرض، وأكابر المجرمين حُرم الناس من تلك النعمة، ولذا يجب علينا ان ننتبه، ونحذر ونعتبر مما مضى.

وأمّا الآيات الدالة على أن هذه المشكلة، هي مشكلة أكابر المجرمين في كل زمان ومكان، فقوله تعالى} :**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ**

الصفحة ٦٥

أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ

يَمْكُرُونَ * فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ.(١){

هذه الآيات واضحة الدلالة، وهي عامة تشمل كل وقت زمان، ولدقة كلام الله عزّ وجلّ ولطافة بيانه لم يقل }وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَهْلَهَا{، بل قال سبحانه وتعالى} :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا{، ليبين لنا أنّ الأكابر، والأعاظم هم الذين يعارضون المختار من قبل الله عزّ وجلّ؛ لأنّهم تعودوا أن تكون كلمتهم هي العليا في مناطقهم فيريدون أن تبقى كلمتهم كذلك، فلهذا يعارضون المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، ويستقطبون أصحاب العقول الضعيفة، والنفوس المريضة، إمّا باتخاذ العقائد الموروثة حجة، والتمسك بالعادات القديمة، والدفاع عنها، أو باتباع ما وجدوا عليه آباءهم، أو باختلاق عقائد وأفكار جديدة، تعجب العوام وترضيهم، المهم يبحثون عن أي

(١)الأنعام: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

وسيلة مناسبة لاستقطاب أصحاب العقول الضعيفة، كدفع الأموال لأهل النفوس المريضة، وتحريك الناس ضد المختارين من قبل الله عزّ وجلّ فيؤدي ذلك إمّا إلى قتل أولياء الله، أو إخراجهم من ديارهم بغير حق.

والآيات الكريمات بيّنت حقيقة المعاندين والمتكبرين في الأرض، وسمّتهم أكابر المجرمين، ونقلت الآيات الكريمات ما تقوله قلوبهم ولو لم تقله ألسنتهم، فكلما جاءتهم آية ـ أي حجة واضحة ولا يوجد شيء أوضح من آيات الله عزّ وجلّ يقولون لن نؤمن!

والسؤال: لماذا لن تؤمنوا؟ هل لأنكم تعبدون الأصنام ولا تريدون تركها؟ هل لكم دين وطريقة أخرى؟ هل لكم مذهب خاص بكم؟ هل لكم عادات لا تريدون تركها؟ هل لديكم شبهة عقائدية لم تجدوا لها جواباً؟ كلاّ، كل هذه ذرائع يتوسلون بها لتحريك جمهور الناس، ومشكلتهم الحقيقية شيء آخر، وهو ما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى} :قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله.(١){

هذه هي مشكلتهم الواقعية، ولكن الله ـ تعـالى ـ يقول لهم إنّه أعلم حيث يجعل رسالته.

(١)الأنعام: ١٢٤.

فلماذا هؤلاء المجرمون يريدون أن يتحكموا في اختيار الله عزّ وجلّ؟! لماذا يريدون أن تكون كلمتهم هي العليا، حتى أصبحت في نظرهم فوق كلمة الله عزّ وجلّ؟

أليس هذا العمل ظلماً؟! بلى، إنّه أعظم الظلم، فهذا هو محض الشرك، فهؤلاء وأمثالهم اتخذوا أهواءهم آلهة من دون الله، وكثير من الناس يقعون في نفس هذا المطب الخطير، فلولا عناد وحسد إبليس وأكابر المجرمين، ومن سار على نهجهم للمختارين من قبل الله عزّ وجلّ، ما وجدت كل هذه الاختلافات في الدين، ولما وجدت كل هذه الفرق الضالة، والأفكار الإلحادية في العالم، ولذا يعدّ ذلك الحسد والعناد أكبر جريمة عرفها ويعرفها التاريخ؛ لأنه على إثرها تنشأ الجرائم الأخر، من قبيل الكفر بالله ـ جـــلّ وعــلا ـ وقتل الأنبياء والأولياء وضلال الأمم.

وأولئك المجرمون هم الذين يشكّلون النواة الأولى للاختلاف، والتفرق بين الناس، وإيجاد المذاهب والفرق المتنوعة، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

قال تعالى} :كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ.(١){...

هذه الآية الكريمة تبيّن أنه ما اختلف في الكتاب؛ إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات، ولماذا يا ترى يختلفون من بعد ما جاءتهم البينات؟

الجواب} :بَغْيًا بَيْنَهُمْ {لا جهلا، ولا لأجل اعتقاد هم صادقون فيه، بل لأجل العناد والتكبّر والسعي من أجل التسلط على الأرض.

وهناك آيات كثيرة بهذا المضمون، نذكر جزءاً منها ونترك الباقي للمتتبع الباحث عن الحق؛ حتى يعرف سرّ الاختلافات بين الناس، الذي هو نتاج لما صنعه ويصنعه أكابر المجرمين في كل مكان وزمان.

قال تعالى} :إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ.(٢){

وقال تعالى} :فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.(٣){

---

(١)البقرة: ٢١٣.

(٢)البقرة: ١٥٩.

(٣)البقرة: ٢٠٩.

وقال تعالى} :تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ الله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء الله مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء الله مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.(١){

وقال تعالى} :وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.(٢){

وقال تعالى} :فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.(٣){

وقال تعالى} :تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ.(٤){

وقال تعالى} :أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

---

(١)البقرة: ٢٥٣.

(٢)آل عمران: ١٠٥.

(٣)آل عمران: ١٨٤.

(٤)الأعراف: ١٠١.

كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.(١){

وقال تعالى} :وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاء الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ

فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.(٢)}

وهذه الآيات الكريمة من سورة يونس (عليه السلام) فيها عبر كثيرة للمسلمين.

أولاها: ذكرت الآية الأولى منها سبب هلاك القرون الأولى، وهو الظلم الذي يتمثّل في عدم إطاعتهم للمختارين من قبل الله عزّ وجلّ، فالله

---

(١)التوبة: ٧٠.

(٢)يونس: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

عزّ وجلّ يقول لهم: اتبعوا المرسلين، وأهواؤهم تقول لهم: لا تتبعوا المرسلين؛ حتى يؤتيكم الله مثلما آتى رسله؛ لكي يكون لكم نفس الوجاهة والمكانه التي ينبغي أن تكون لرسل الله عزّ وجلّ وأنتم أحق بالملك منهم، فأطاعوا أهواءهم، فصاروا من المشركين، ثم استحقوا بعد ذلك العذاب المهين.

وثانيها: تذكر الآية الثانية أن الله عزّ وجلّ جعل المسلمين خلائف في الأرض؛ لأن الخطاب لهم، أو لمن كان في ذلك العصر إلى يومنا هذا، أي أن المخاطبين خلائف في الأرض لتلك الأمم السابقة، ونحن ـ أي المخاطبون ـ في حالة اختبار، هل نسلم لمن اختارهم الله عزّ وجلّ، أم نظلم كما ظلمت تلك الأمم السابقة؟

وثالثها: ذكرت الآيات الكريمة موضوعاً مهماً، ألا وهو قول المعاندين: إنّ الأصنام ـ أو آلهتهم سواء أكانت حجارةً أم بشراً ـ هي التي تكون شافعة لهم عند الله، وهذا الاعتقاد هو نوع من أنواع الشرك، لا من حيث أصل الشفاعة، بل من جهة نسبتها لمن لم يجعل الله عزّ وجلّ له شفاعة عنده، أي أنهم بقولهم هذا يفرضون على الله عزّ وجلّ أن تكون شفاعة فلان أو فلان مقبولة عنده، وهو عزّ وجلّ لم يخبرهم بذلك، وهذا تجاوز على الإرادة الإلهية، وهو من الشرك أيضاً.

الاختيار الإلهي

قال تعالى} :وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.(١)}

وقال تعالى} :وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا.(٢){

هاتان الآيتان الكريمتان توضحان أن الاختيار كلّه لله عزّ وجلّ، فالآية الأولى وضّحت أن مسألة الاختيار الإلهي هو من السنن الإلهية التي لا تتغير، لأنها ـ أي الآية ـ تقول إن الله عزّ وجلّ يخلق المخلوقات، ثم لا يتركها، بل يختار من بينها أفضلها.

فالله عزّ وجلّ خلق جميع المخلوقات ولكنه اختار من بينها ما يشاء، وقد ربطت الآية الكريمة قضية الخلق مع قضية الاختيار، وهذا يبيّن أهمية مسألة الاختيار الإلهي، حيث نرى أن الله عزّ وجلّ قد اختار من بين مخلوقاته اختيارات كثيرة، وعلى سبيل المثال نذكر مايلي:

---

(١)القصص: ٦٨.

(٢)الأحزاب: ٣٦.

-١خلق الله عزّ وجلّ الليالي واختار منها ليلة القدر.

-٢وخلق الله عزّ وجلّ الأيام واختار منها يوم الجمعة.

-٣وخلق الله عزّ وجلّ الأشهر واختار منها شهر رمضان.

-٤وخلق الله عزّ وجلّ الأودية واختار منها وادي مكة.

-٥وخلق الله عزّ وجلّ الحجارة واختار منها الحجر الأسود.

-٦وخلق الله عزّ وجلّ البيوت واختار منها البيت المبارك، الكعبة الشريفة.

-٧وخلق الله عزّ وجلّ جميع البشر واختار من بينهم أفضلهم أبينا آدم (عليه السلام) واختار الله عزّ وجلّ ذرية طيبة وهم آل ابراهيم وآل عمران، قال تعالى} :إِنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١){ومن هنا يأتي السؤال: هل اختار الله عزّ وجلّ أحداً من هذه الأمة؟ وهل جرت هذه السنة الإلهية على هذه الأمة؟ أم توقفت؟

وهذا سؤال يجب أن تبحث أنت أيها الباحث عن الحق، عن جوابه؟.

فهذا الكتاب قد بين لك سبب الاختلافات على مر التاريخ بأدلة قرآنية واضحة، وبينّ لك أهمية هذا الموضوع، وساعدك على تحديد

(١)آل عمران: ٣٣، ٣٤.

نقطة المرض لكي تقوم أنت بمعالجته، فأنت الآن مسؤول أمام المولى عزّ وجلّ عن البحث عن المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، ويجب أن تبحث في هذا الموضوع بكل جد وإخلاص، طالباً من المولى عزّ وجلّ أن يهديك ويرشدك للحق؛ لأن هذا الموضوع قد تم تهميشه، وإسكات الناس عنه، لأنه محور الخلاف والنزاع الحقيقي.

وكما أشرنا سابقا إلى أننا فقط، سنذكر بعض الآيات الدالة على أهمية هذا الموضوع، ونترك الباقي للمتتبع، لكي يلاحظ أهمية هذا الموضوع من القرآن الكريم بنفسه، ولكن لكي يزداد الأمر وضوحاً، نذكر بعض الآيات، التي تبين أهمية الاصطفاء، والاختيار، والتفضيل الإلهي وأنه بيد الله عزّ وجلّ الذي هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وهو الذي يزكي من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، قال تعالى} :وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ.(١){...

وقال تعالى ...} :فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً.(٢){...

وقال تعالى} :تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ.(٣){...

(١)النساء: ٣٢.

(٢)النساء: ٩٥.

(٣)البقرة: ٢٥٣.

وقال تعالى} :وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ.(١){ ...

وقال تعالى} :انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً.(٢){

وقال تعالى} :وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا.(٣){

وقال تعالى} :وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً.(٤){

وقال تعالى ...} :وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.(٥){

وقال تعالى ...} :قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ.(٦){

وقال تعالى} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

---

(١)النحل: ٧١.

(٢)الإسراء: ٢١.

(٣)الإسراء: ٥٥.

(٤)الإسراء: ٧٠.

(٥)البقرة: ١٠٥.

(٦)آل عمران: ٧٣.

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ.(١){

وقال تعالى} :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.(٢){

وقال تعالى} :ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.(٣){

وقال تعالى} :وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.(٤){

وقال تعالى} :بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ الله بَغْياً أَن يُنَزِّلُ الله مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ.(٥){

وقال تعالى} :أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ فَقَدْ

---

(١)المائدة: ٥٤.

(٢)فاطر: ٣٢.

(٣)الحديد: ٢١.

(٤)الحديد: ٢٩.

(٥)البقرة: ٩٠.

آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا.(١){

وقال تعالى} :يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.(٢){

وقال تعالى } :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.(٣){...

وقال تعالى} :وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.(٤){

وقال تعالى } :وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ.(٥){...

وقال تعالى } :إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.(٦){

---

(١)النساء: ٥٤.

(٢)آل عمران: ٧٤.

(٣)الأنعام: ١٢٣، ١٢٤.

(٤)القصص: ٦٨.

(٥)الأحزاب: ٣٦.

(٦)آل عمران: ٣٣، ٣٤.

وقال تعالى} :وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ.(١){

وقال تعالى} :قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ.(٢){

وقال تعالى } :الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاِئكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ.(٣){

وقال تعالى ...} :وَآتَاهُ الله الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء.(٤){...

من هذه الآيات الكريمات نلاحظ كيف ركّز القرآن الكريم على أهمية مسألة الاصطفاء، والاختيار والتفضيل، وأكّد على أن هذه المسألة بيد الله وحده، فهو الذي يختص برحمته من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، والله عزّ وجلّ هو العالم بحال الخلق، الخبير بما في

---

(١)آل عمران: ٤٢.

(٢)البقرة: ٢٤٧.

(٣)الحج: ٧٥، ٧٦.

(٤)البقرة: ٢٥١.

صدورهم، وهو الذي يعلم مشاكلهم الواقعية، التي سببت وأدّت إلى تفرّقهم، وهي المنافسة من أجل علو الكلمة، والتسلّط على الأرض، فلو عرف الناس من هم خيرة الله عزّ وجلّ في كل عصر، وسلّموا لهم الأمور، لما حدث النزاع وبعده الاختلاف العقائدي، وهلمّ جراً.

أخي القارئ الكريم، عندما تمعن النظر فيما أوردنا من القصص القرآنية، كقصة إبليس مع أبينا آدم (عليه السلام)، وقصة أخوة يوسف، ومشكلة اليهود مع الإسلام ونبيه، ومشكلة قريش مع رسول الله، تجدها تبيّن وتوضّح المشكلة التي جعلت المعاندين يعاندون، حتى وصل الأمر إلى تشكيل الأديان، والفرق، والاختلاف في أغلب المسائل، وهي مشكلة التنازع من أجل التسلّط على هذه الأرض.

فلذا ينبغي على الإنسان المسلم الذي يريد أن يبحث عن الحق، وعن الفرقة الناجية أن ينظر إلى هذه المسألة ـ التي ركّز عليها القرآن الكريم وأكّد عليها ـ بكل دقّة ويركّز عليها، كما ركّز عليها القرآن الكريم، ولا يشغل نفسه بالمسائل الخلافية الأخرى، لأنها ما هي إلاّ ثمرة للاختلاف في هذه المسألة، والبحث في المسائل الأخرى قبل البحث في هذه المسألة، ومعرفة الحق فيها، لا جدوى منه.

السرّ الكامن وراء الاختلاف بين المسلمين

لقد أشرت في مقدمة الكتاب إلى كثرة المسائل، المختلف عليها بين الفرق الإسلامية، فأنت أخي الباحث لو جلست إلى أحد علماء أهل السنة وخصوصاً السلفية، وسألته عن الشيعة سيكيل لهم آلاف التهم، كأن يقول مثلا، إنّهم مشركون، ويعبدون القبور، ويغالون في أهل البيت (عليهم السلام)، ويسبّون الصحابة، ويبيحون الزنا، ويجيزون المحرمات، ويرتكبون الفواحش و...

كذلك نفس الأمر لو تجلس إلى رجل من الشيعة وتسأله عن السلفية، سيقول لك إنّهم يشبهون الله عزّ وجلّ بخلقه، ويعبدون جسماً يأتي على حمار أعرج يوم القيامة ليكشف عن ساقه، ويضع رجله في نار جهنم حتى تقول قط قط، ويفعلون المعاصي والذنوب، ويقولون هي بقضاء من الله وقدر؛ لأنهم جبرية، وهم أعداء آل محمد (صلّى الله عليه وآله) وأنصار يزيد ومعاوية و...

وهذا الأمر سارٍ على الجميع، وسترى أخي الباحث أنّ التهم التي تقذفها كل فرقة على الأخرى كثيرة جداً، فلاتكاد توجد مسألة في الأصول أو الفروع، إلاّ وحولها اختلاف، ونزاع، وتهم، وتضليل،

وتفسيق، وما إلى ذلك، تماماً كما يحدث بين المسلمين والمسيحيين، فالمسلم يرى أنّ المسيحي وغيره من أصحاب الأديان المخالفة للإسلام على ضلال في جميع أموره، وكذلك المسيحي ينظر إلى المسلم بنفس النظرة.

وبالنسبة للمسلم فلا توجد عنده شبهة في انحراف الأديان الأخرى عن الحق، ومشكلته اليوم هي كيف يعرف الفرقة الناجية من بين الفرق الإسلامية؟ وإذا أراد أن يسمع كلّ التهم التي تقال ضد كل فرقة، ثم يقوم بالبحث عن كل تهمة منفردة، فسوف يتوفاه الموت قبل أن يعرف الحق، لأنّ التهم كثيرة جداً لا تكاد أن تحصى، هذا إضافة إلى تولّد شبه، وتهم جديدة تحتاج إلى بحوث جديدة، وهكذا سيبقى الباحث في دوامة كبرى كلّما وصل إلى طرفها وجد أنّه لا زال في وسطها، فما هو الحل؟

الحل ـ كما بيّنا فيما سبق ـ هو أن ننهج نهج القرآن الكريم في معالجة هذه المشكلة، ونركّز على المسألة التي ركّز عليها القرآن الكريم، فالقرآن الكريم أولاً تحاور مع الديانات السابقة بمنهج منصف يحترمه كل عاقل، فلم يحتج عليهم بما فيه من الآيات لأنهم لن يقبلوا ذلك، وانّما احتج عليهم بما يعتبرونه حجة عندهم، وهي كتبهم المعتبرة، فقال تعالى ...} :**قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ**

صَادِقِينَ.(١)}

و نهج القرآن الكريم هذا في الحوار لا يعني أنّ كلّما في التوراة صحيح لأنّها قد حرّفت، ولكنّ الاحتجاج بما وافق مدّعى القرآن الكريم حجّة على أصحاب التوراة، و الإنجيل.

ثانياً: القرآن الكريم أرشدنا إلى أن الذين يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم، هم علماء أهل الكتاب، وذلك يدل على أن الحقيقة ليست واضحة لجميع أهل الكتاب، وذلك يعني أننا لن نجد الدليل على أحقية الرسول (صلّى الله عليه وآله) في مكان واحد في التوراة، أو الإنجيل وأنه واضح لا يخفى على أحد؛ لأنّه لو كان كذلك، لما استطاع أهل الكتاب التغطية على عوامهم وأتباعهم، ولكن الحقيقة هي أنك تجد الشواهد الدالة على أحقية الرسول (صلّى الله عليه وآله) موزعة هنا وهناك، ولكنّ الباحث عن الحق يقوم بربط تلك الحقائق بعضها مع بعض، ومن ثم يصل إلى الحقيقة، كذلك الأمر بين الفرق الإسلامية، لذا ينبغي للباحث ان يربط الحقائق المتناثرة في الكتب؛ لكي يصل الى معرفة المختار من قبل الله عزّ وجلّ.

ثالثاً: ـ وهو بيت القصيد ـ القرآن الكريم لم يناقش أهل الكتاب في كل مسألة من مسائلهم على حـدة ـ إذن لاحتاج ذلك العمل إلى

(١) آل عمران: ٩٣.

مئات المجلدات ـ بل كشف لنا السرّ والسبب الذي من أجله خالف أهل الكتاب الإسلام، وبيّن لنا وللناس أجمعين أنّـهم ـ وهم اليهود وغيرهم ـ كبر في أنفسهم التسليم لمن اختاره الله عزّ وجلّ، وذلك هو دأب إبليس ومن اتبع خطاه، حيث خالفوا من اختارهم الله عزّ وجلّ، ثم فرّقوا دينهم واختلقوا آلاف المسائل الخلافية؛ لكي تكون المبرّر لهم أمام الناس للمخالفة، والمنازعة لمن اختارهم الله.

نعم، أخي الباحث، لو تمعن النظر قليلاً، تجد أنّ المسلمين بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) مباشرةً لم يكن بينهم أي اختلاف عقائدي، ولكنّهم اختلفوا، وحدث نزاع شديد لا ينكره إنسان منصف باحث عن الحق، أدّى ذلك النزاع إلى طرد بعض الصحابة الأجلاّء من مدينة الرسول (صلّى الله عليه وآله) مثل أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ ثم انجرّ النزاع إلى قتل الخليفة عثمان ثمّ تحوّل إلى حرب الجمل وصفين والنهروان و.. و...

فأنت تسأل لماذا كل تلك الاختلافات، والنزاعات، والحروب مع أن الرسول (صلّى الله عليه وآله) ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك؟

ويتّضح لك أن المشكلة هي نفس مشكلة الأمم السابقة، وهي النزاع من أجل علوّ الكلمة، فكلٌ يريد أن يقول أنا خير منه، ونحن أحق بالملك منه، وصدق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حيث قال: ((لتتبعن سنن من

كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يا رسول اليهود والنصارى قال: فمن .(١))) نعم، لأنّها النفس البشرية والناس هم الناس؛ لذا تتكرر الهفوات، والاشتباهات، والانحرافات، ولا أريد أن أتعمّق في هذه المسألة أكثر، لأني أريد منك أخي الباحث أن تراجع التاريخ وترى بنفسك الاختلافات التي وقعت بين الصحابة، وتلاحظ أن ما بيننا اليوم من اختلاف، وتنازع ناتج عن تلك النزاعات، التي حدثت في صدر الإسلام، وكما هو واضح من أنّ النزاع الذي كان بين الصحابة لم يكن لأسباب مذهبية، ولا لأجل انحرافات عقائدية، لذا ينبغي للباحث عن الحق أن يركّز كلّ جهده في البحث عن مسألة واحدة فقط، وهي هل اختار الله عزّ وجلّ للأمة الإسلامية بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله) هداة وأئمة؟

وإذا كان قد اختار، فمنهم أولئك الهداة والأئمة؟

فإذا عرفت أخي الباحث الذين اختارهم الله عزّ وجلّ واصطفاهم، وجب عليك آنذك التسليم لهم في كل شيء واتّباعهم في كل ماثبت لك عنهم من المسائل العقائدية، وغيرها، ووجبت عليك أيضاً البراءة ممن حاربهم، ولم يسلّم لهم.

ومما يزيد المسألة وضوحاً، هي أن كلّ اختلافات المسلمين ناشئة

(١)صحيح البخاري ٨: ١٥١، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ط. دار الفكر - بيروت.

عمّا دار بين الصحابة من نزاع على السلطة، إنك لو قلت لسلفي أو سني: أنا سأعمل بكل ما تقولونه صغيراً وكبيراً، ولكن أقول إنّ الخليفة الشرعي بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله) هو علي بن أبي طالب، فسيقول لك اذهب أنت رافضي خبيث، وسيتهمك بالزندقة والضلال وما إلى ذلك، ولن يقول إن هذه المسألة من فروع الدين ولكلّ مجتهد نصيب!

كذلك لو قلت لشيعي: أنا سأعمل بكل ما تقولونه، ولكن أقول إنّ الخليفة الشرعي بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله) هو أبو بكر، كذلك لن يقبل منك أي عمل ولا يرضى عنك حتى تؤمن أنّ الخليفة الشرعي بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله) هو علي بن أبي طالب (عليه السلام).

إذن النزاع في الواقع بين المسلمين ليس كما يصوّره البعض للناس بأنه مشكلات عقائدية، معقدة لايفهمها إلاّ الراسخون في العلم، بل هو واضح من خلال ما ذكرنا وهو ـ أي النزاع ـ وجد في صدر الإسلام من أجل مسألة الولاية والإمامة، والولاية هي سبب الحروب والفتن والنزاعات بين المسلمين، كما كانت هي السبب للحروب والنزاعات التي كانت في الأمم من قبلنا،

وقد صدق الشهرستاني حيث قال: ((وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة

في كل زمان)).(١)

نعم، إنه في كل زمان، ولا زال السيف يقطر من دماء المسلمين لأجل الإمامة والولاية، فينبغي للباحث عن الحق والمريد للهداية والصواب أن لا يشتغل بأي مسألة خلافية غير الإمامة، لأنّه إذا عرف المختارين من قبل الله عزّ وجلّ لم يبق عليه إلاّ طاعتهم والانضمام تحت لوائهم ولا يجوز له مخالفتهم، والاعتراض عليهم.

وهذه المسألة هي أهم مسألة يبحث فيها أي باحث عن الحق، وكمثال لذلك: لو أن رجلاً مسيحياً يريد أن يبحث، ليعرف هل الدين الإسلامي هو الحق أم لا؟ فإذا أخذ كل مسألة تقال حول الإسلام، ليبحثها على حدة، فسوف يموت قبل أن يسلم؛ لأنّه يلاحظ آلاف الإشكالات التي توجّه ضد الدين الإسلامي، لكنّه لو بحث هل اختار الله محمد بـــن عبد الله (صلّى الله عليه وآله) رسولاً أم لا ـ مـع العـلم أن الله عزّ وجلّ سيسدده ويهديه في هذا البحث بالذات؛ لأنّ الله عزّ وجلّ متكفّل بنصرة أوليائه والمختارين من قبله ـ وركّز ذلك المسيحي على هذه المسألة، فإن ثبت له اختيار الله للرسول (صلّى الله عليه وآله)، فيلزمه عند ذلك وجوب اتباع الرسول (صلّى الله عليه وآله) في جميع الأمور، وبذلك يوفر على نفسه الجهد الجهيد من البحث عن جميع التهم، التي تقال عن الإسلام من جميع زواياها،

(١)الملل والنحل ١: ٢٤.

وهذا الأمر لا طاقة له به، وإن لم يثبت له ذلك، بقي على دينه، ووفّر على نفسه عناء البحث.

لذا ينبغي للباحث عن الحق أنْ يركّز على نفس هذه المسألة، التي من خلال التحقيق فيها يستطيع الوصول إلى الحقيقة بسرعة، وبسهولة فائقة، فإن ثبت له أنّ الله عزّ وجلّ اختار أبا بكر، أو عمر خلفاء للمسلمين بطل عنده معتقد الشيعة من الأساس، ولا حاجة له لبحث آخر، وإن ثبت له أن الله عزّ وجلّ اختار علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين بطل عنده معتقد السنة من الأساس، ولا حاجة له لبحث آخر.

ومن أجل معرفة الحق في هذا الأمر الخطير لابدّ أن ننهج نهج القرآن الكريم في الحوار، حيث يجب علينا أن نحتج على كل فرقة بما تعتبره حجّة، لا بما نعتبره نحن حجة، منفردين بذلك الأمر، فننظر في الروايات التي يعتبرها الشيعة صحيحة طبق قواعدهم الرجالية، لنرى هل فيها ما يدلّ على اختيار الله عزّ وجلّ لأبي بكر خليفة للمسلمين فإن وجدنا شيئاً، ولو كان يشير

بإشارة بسيطة، اعتبرنا ذلك حجة عظيمة على الشيعة، وكذلك الأمر بالنسبة للسنة، فننظر إلى ما يعتبرونه صحاحاً من كتبهم أو رواياتهم، فإن وجدنا فيها ما يدلّ على اختيار الله عزّ وجلّ لعلي بن أبي طالب للخلافة، ولو بإشارة بسيطة،

يُعتبر ذلك حجة كبيرة على أهل السنة.

وفي آخر هذا البحث أود أن أشير إلى مسألتين هامتين وهما:

أولا: حينما نقول إن سبب النزاع، والخلاف بين الناس هو السعي من أجل التسلط على الأرض، فلا يعني ذلك أن المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، هم أيضاً يقاتلون ويناضلون من أجل ذلك الهدف، بل لأن الله عزّ وجلّ لمّا اختارهم أوجب عليهم السعي من أجل إعلاء كلمته تعالى، وذلك يقتضي الأمر والنهي، فعند ذلك يرى أكابرُ المجرمين، والمعاندون، أنّ الأمر والنهي أصبح بيد المختارين من قبل الله عزّ وجلّ ويرون أن مواقعهم الاجتماعية في خطر، لذا يقومون ضد المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، ويضحّون بكل ما يملكون من أجل الإطاحة بهم، فالحروب وسفك الدماء يتحمل وزرها المعاندون، الذين يعارضون المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، فالحروب التي جرت بين المسلمين، والمشركين سببها أعداء الإسلام قريش، وليس الرسول (صلّى الله عليه وآله) لأنّه أي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إنما قام ليـدعو ربه ـ أي ليعبده ـ ويؤدي واجبه ووظيفته.

ثانياً: كما نعلم أن المختارين يختارهم الله سبحانه بعلم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أحكم الحاكمين، لذا توجد للمختارين من قبل الله عزّ وجلّ حسب هذا الاختيار الإلهي الدقيق صفات ومميزات

من أهمها:

أ ـ لا يأتون بشيء في الدين من لدن أنفسهم، فهم يؤدون وظيفةً رسمها اللهُ عزّ وجلّ لهم؛ لذا لا يأتون بقول فقهي أو عقائدي، ثم يقولون بعد فترة إن ذلك القول كان خطأ.

ب ـ إنّ للـمختـارين من قبل الله عزّ وجلّ سوابق حسنة وتاريخهم دائماً يكون أبيض خالياً من الظلم، والانحراف، والشرك، ومن أجل ذلك اختارهم الله عزّ وجلّ واصطفاهم، وتلاحظ في القرآن الكريم كيف وصف الأنبياء لكي يبين لنا شرف مولدهم ونزاهة تربيتهم، حيث يقول تعالى} :ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.(١){

وكذا نرى اعتزال مريم وخلوتها مع الله عزّ وجلّ، حتى تأهلت لتكون أماً لعيسى (عليه السلام) فالله يختار أولياءه وحججه على العباد بحكمته وعلمه ويحافظ عليهم من الزلل والانحراف.

ج ـ ومـــن علامات المختارين من قبل الله عدم الاختلاف، إذا كانوا مجتمعين في زمن واحد، فلا يتنازعون، ولا يتقاتلون، بل يخضعون للاصطفاء الإلهي بينهم أيضاً، كما كان لوط خاضعاً لتوجيهات إبراهيم، وهارون خاضعاً لتوجيهات موسى، وغيرهم (عليهم السلام)

(١)آل عمران: ٣٤.

وذلك مصداق لقوله تعالى} :وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ.(١){

د ـ كذلك من علامات المختارين من قبل الله أنّهم دائماً يدعون الناس إلى اتباعهم ويقولون للناس إنّ ما عندنا من العلم، والدين، والفقه من الله عزّ وجلّ وليس من عند أنفسنا؛ لذا يوجبون على الناس الأخذ بحديثهم؛ لأنّه طاعة لله تعالى، وأمّا غير المختارين من قبل الله عزّ وجلّ فهم يتناقضون في الفتوى، وقد يقولون للناس لا تأخذوا بكلامنا، فنحن لسنا على يقين من أمرنا، وأشقى الناس من يتبع إماماً في الدين، وذلك الإمام يقول لا تأخذوا بكلامي، فلست حجّة عليكم.

وهناك صفات ينبغي أن تكون في المختارين من قبل الله عزّ وجلّ مثل الأعلمية، والشجاعة، والعبادة، بحيث لا ينافسهم في ذلك أحد، وهذه المزايا والصفات قلنا إنها لازمة للمختار من قبل الله عزّ وجلّ انطلاقاً من قاعدة أنّ الله أحكم الحاكمين، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، حيث نرى تلك الخصائص والصفات فيهم بارزة وأولهم وأفضلهم نبي

(١)آل عمران: ٨١.

الإسلام محمد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله)، لذا ينبغي للباحث عن الحق أن يدقق النظر في البحث عن المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، لأنّها أعظم مسؤولية في عنقه بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ، فلذا يجب عليه مراجعة التاريخ بدقة وتتّبع الأحاديث الصحيحة؛ لكي يجد الحقيقة الضالة ويصل إلى شاطئ الأمان، حيث سيستظل هناك تحت ظل المختارين من قبل الله عزّ وجلّ، فيصل إلى اليقين في الدين، ويشعر عندها بحلاوة الإيمان وتسكب عيناه الدموع، دموع اللقاء، لقاء الأحبة، لقاء أولياء الله عزّ وجلّ، والحمد لله ربِّ العالمين.